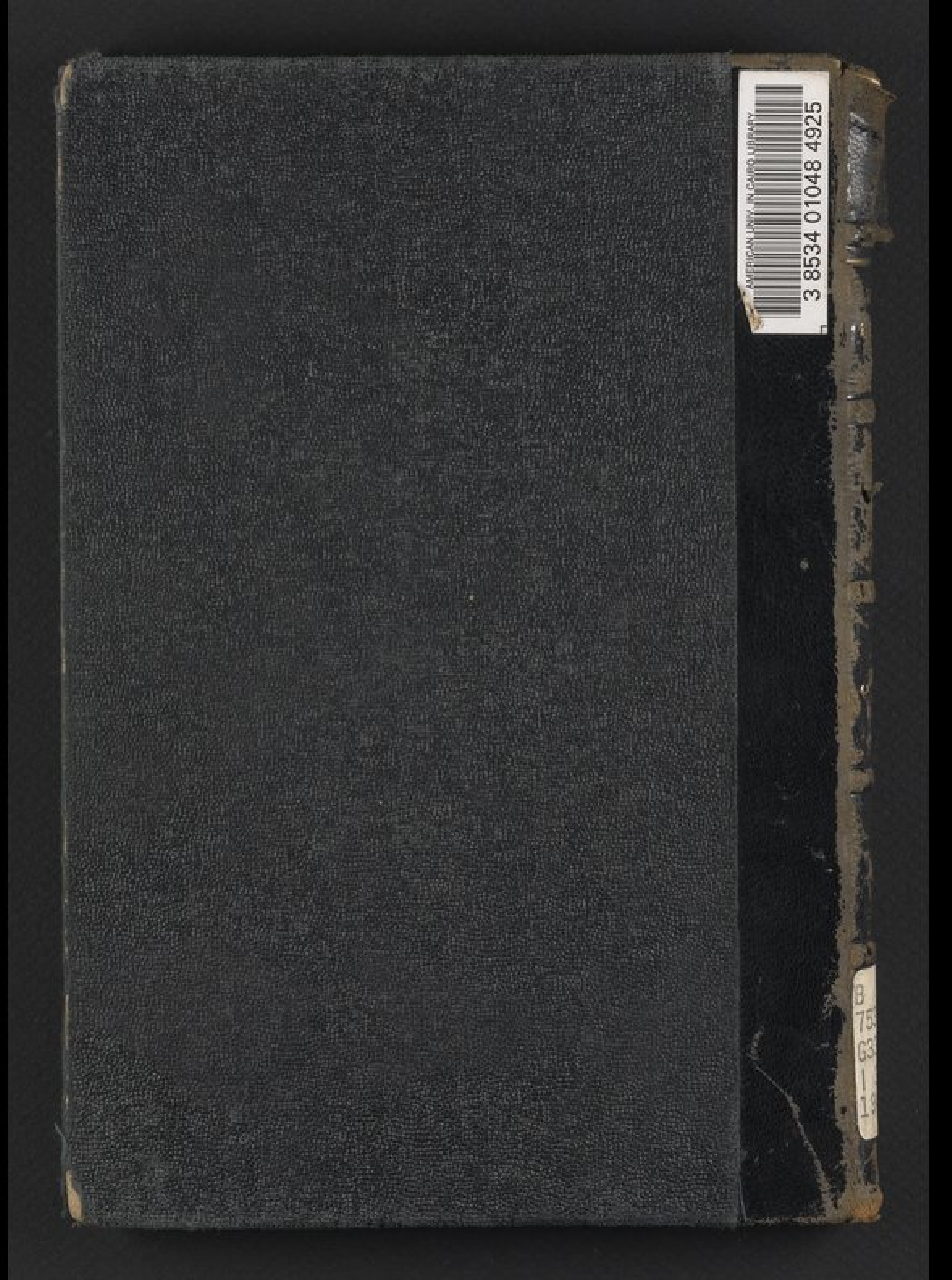
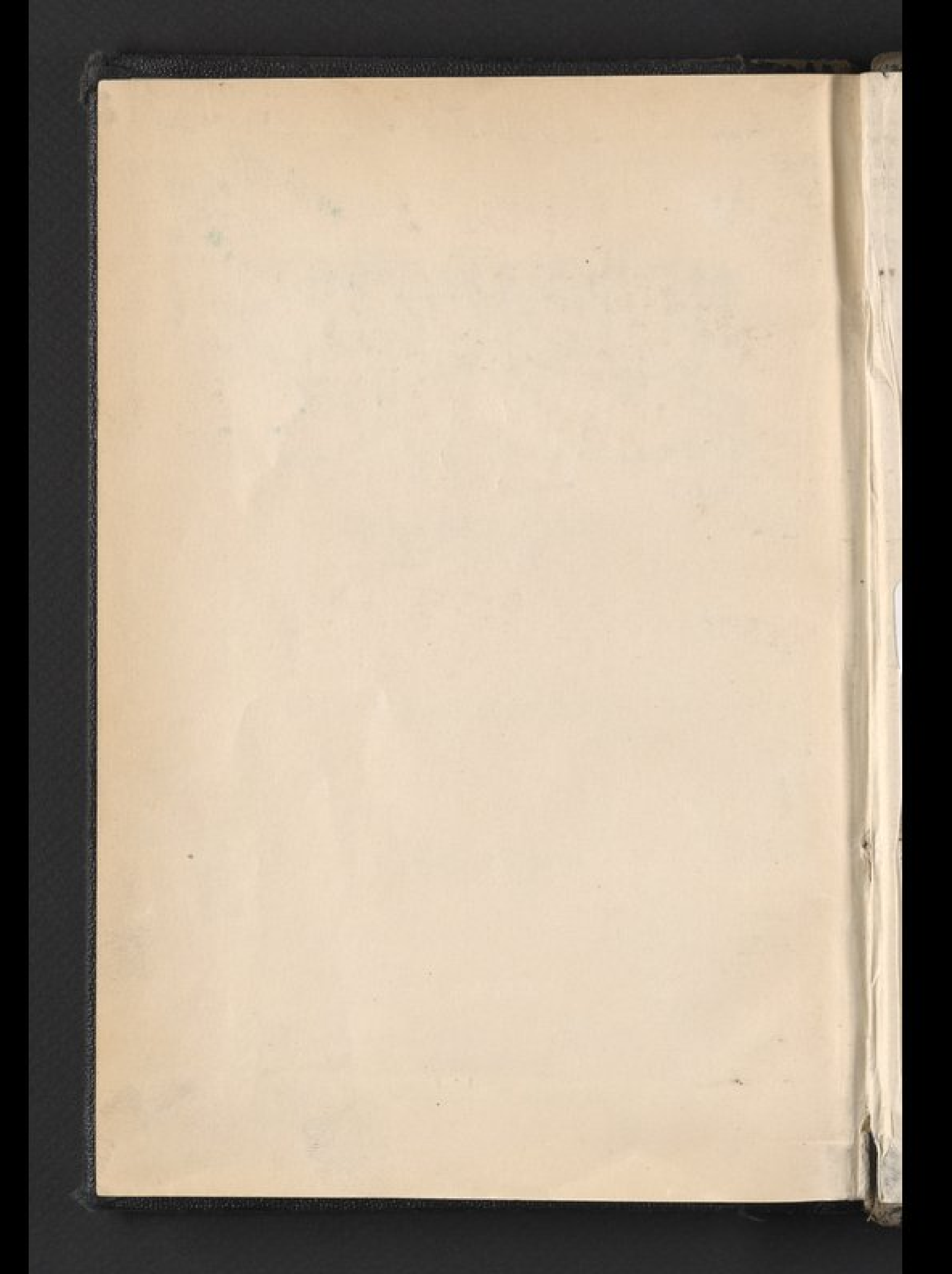


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01048 4925


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة



سلسلة الروح الجامعية :

الثقافة الروحية

في كتاب إحياء علوم الدين للغزالى

بقلم محمود على قراعة

(الطبعة الثانية منقحة ومكبرة)

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

طبع بدار الكتاب العربي بمصر

شارع فاروق — تليفون : ٥٠٩٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نثق . . . والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الإهداء

الى روح أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق

الذى أحببنا قلبه وروحه وقربت روحنا من روحه أستاذاً عزيزاً نبيلا ، والذى دعتنا صوفيتنا إلى أن ننأى عنه وزيراً وشيخاً للجامع الأزهر ، فكان إذا ما قابلناه عاتبتنا نظراته وجاد بفيض عطفه وحبه ما كان يخجلنا فى تقصيرنا ، فلما فقدناه وشيعناه أحس قلبنا وروحنا بتحية روحه التحية التى تذكرنا كما ذكرناها بقلبه الكبير وبما كان له من نبل فى الأخلاق ورقة فى الشعور وعذوبة فيض فى الروحانية . . . تحية روح لروح ! . . .

محمود على قراعة

منشية البكرى فى { ٢٠ رجب سنة ١٣٦٦ هـ
٩ يونية سنة ١٩٤٧ م }

صفوة

إحياء الغزالى

يجب على أن أذكر أنى أردت بحديث الغزالى الروحى إعطاء القارىء فكرة كاملة مختصرة للثقافة الروحية فى كتاب « إحياء علوم الدين » ، لأوفق بين دفع القصور والتقصير فى إهمال قراءته على كبر قيمته وبين توفير الوقت على الراغبين فيه لولا كبر حجمه ، وصعوبته ، وعنيت كل العناية بالمحافظة على معانيه حتى حافظت فى كثير من الأحيان على نص لفظه ولم أخرج عن هذا إلا فيما كان جريا على نهج البحث أو سبيل الاستنتاج ، واجتهدت — لكيلا أخرج عن الغرض الذى أردته — فى أن أجرد الحديث عن آرائى الشخصية فوفقت لهذا إلى حد كبير ، حتى أنى جذبت عنان يراعى وفكرى فلم يخط فى هذا الكتاب إلا بضع خطى قليلة ظاهرة أردت بها إيضاح فكرة غامضة أو التحدث عن وجهة نظرى فى موضوع من الموضوعات التى رأيت وجوب عرضها لتكون مكملة أو موضحة للحاجات الروحية والاجتماعية فى هذا العصر مع تمشيها مع روح الإسلام ومع المبادىء الروحية للغزالى نفسه !

واللذة الروحية التى أردنا أن يشعر كل إنسان بها هى المعرفة ، والغزالى قد أنار لنا الطريق بما حدثنا ، ونستطيع أن نوجز الحديث عن هذه اللذة بأن نذكر أنها لذة واحدة متشعبة إلى عدة فروع ، وهى لذة معرفة الله ، فمن حديثه عرفنا معرفة صادقة ما يجب أن نعرفه عن الله ، وعرفنا معنى

توحيده والفناء فى هذا التوحيد فى التوكل عليه وحده هـذا التوكل الذى أراده الله لعباده، وعرفنا حب العبد لله ومعنى حب الله للعبد ومظاهر هذا الحب[١]، وعرفنا الأنواع المختلفة التى تعبدنا الله بها وما يريده سبحانه من تقوية قلوبنا وتصفيتها وتغذية أرواحنا وتنميتها بالإيمان ، وعرفنا كيف نخلص لله ونراقبه ونخافه ونرجوه، وإذا أذنبنا ما سبيل التوبة للرجوع إليه ، وفى حياتنا كيف نفكر فى خلقه، وعند موتنا ماذا يجب أن نستحضره من الإيمان به وحبه . فإذا ما شعرنا بهذه اللذة شعرنا بلذة قوة الإيمان ولذة العمل على نجاة نفوسنا وتطهيرها بحب الجلال والخير والجمال ، وتغذية أرواحنا فى الصلات المختلفة بين الناس وما يجب علينا أن لا نبخسهم أشياءهم والا نتعرض لإيذائهم بسوء ظن أو حقد أو حسد أو فعل شر لهم ، فنشعر بلذة حب الناس ولذة العطف عليهم ولذة الاتصال القلبي بمشاركتهم فى الفرح بسرائهم والألم لضرائهم ، فإذا وصلنا إلى هذه الدرجة فنحن لابد واصلون إلى اللذة الروحية بفهم معنى الجمال ومداه وأنواعه ، وبالصلة الروحية بين صديق نؤاخيه أو زوجة نرتبط برباط شرعى بها ، أو قريب تربط بيننا وبينه لحمة النسب ، أو وطنى تربطنا به رابطة الدم ، أو إنسان تربط بيننا وبينه رابطة الإنسانية وكونه عبد الله خلقه كما خلقنا وله قلب وروح وجسم كما لنا، ويجب عليه أن يقوى روحه ويسخر بدنه وقلبه لخدمة هذه الروح والسمو بها كما يجب علينا . وإذا فهم الإنسان هذا واستفتى قلبه المؤمن وعمل بما يوحيه إليه ضمير الإيمان وبصيرة العقيدة الخالصة القوية ولوامع الحق فى القلوب ، رغب فى تقوية هذه اللذات فلجأ لفقه النفوس فراض نفسه على حب الخير وعمل على أن يخلص صلته بربه من الشوائب وصلته بالناس

(١) سنرى أن محبة الله العبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه ، وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له ، وعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره .

من الظلم وصلته بنفسه من إيذائها ، وبذا تلخص روحانية الغزالى فى إيمان الإنسان بكل شيء فى الحياة ، بأن يكون قوياً فى حبه لربه (لأنه أصل نعمة الحياة) وللناس (لأنهم صنع الله) ولصحبه (لأنهم قطعة من روحه) ، ومظهر حبه لله الإيمان القوى والعبادة والتوكل والتوحيد ، والحب والإخلاص والمراقبة والتوبة والرجاء والخوف ، ومظهر حبه للناس العطف عليهم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإحسان لهم وعدم إيذائهم وبذل الجهد ما أمكن لخيرهم فى دينهم ودنياهم ، ومظهر حبه لإخوانه أن يعاملهم كنفسه يحب لهم ما يحب لها ويكره لهم ما يكره لها ، وحسب الإنسان كمالا أن يزن الأمور بالقسطاس بأن يكون عادلا فى معاملاته المادية ، رحيما فى معاملاته المعنوية ، مخلصا فى معاملاته الروحية ، وحسبنا أن نصل بالقارىء إلى هذه الدرجة من الرقى الروحى ، والسلام .

محمود على قراعة
« غفر الله له ووفقه للخير »

منشية البكرى فى ٦ مايو سنة ١٩٣٥

تمهيد البحث وتقسيمه

العلم غذاء القلب :

يرى الغزالى « أن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض ، وموته لازم ولكنه لا يشعر به إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح فى الحال وإن كان واقعاً ، فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا ، أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيما بما لا ينفعه (لأن « الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ») .

الشواهد العقلية لفضل العلم :

ويأتى للتدليل على فضل العلم بشواهد عقلية خلاصتها : أن العلم فضيلة فى ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ، فإنه وصف كمال الله سبحانه وتعالى ، وهو لذيذ فى نفسه لأنه ذريعة إلى معرفة الله وأصل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وأن تعلمه طلب للأفضل وتعليمه إفادة للأفضل . وأن المعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم إذ يشتغل بتكميلها وتجليتها وتطهيرها وسياقها إلى القرب من الله عز وجل .

علم المعاملة وعلم المكاشفة :

ويقسم العلم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة . ويقول إن المعاملة التى تكلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : إعتقاد ، وفعل ، وترك : فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما وهو قول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، ولا يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر

والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ، فمن صدّق وأقر فقد أدى واجب الوقت . أما الفعل فبتجدد وجوب الصلاة عليه إذا دخل عليه وقتها ، ووجوب تعلم الصوم إذا دخل عليه رمضان ، فإن تجدد له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، فإذا دخل فى أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخى فلا يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغى لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخى على كل من ملك الزاد والراحلة ، فإذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج . وأما الترك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب ، فيجب علمها بحسب الخواطر فإن خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة . فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك ، وينبغى أن يبادر فى أن يلقى إليه الإيمان بالجنة والنار والحشر حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تتمة كلمتى الشهادة .

العلم شرعى أو غير شرعى :

ويرى الغزالى أن العلوم بالاضافة إلى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية . وأن الشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه [1] ولا التجربة [2] ولا السماع [3] . وأن العلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو مذموم (كعلم السحر) وإلى ما هو مباح (كالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها وتواريخ الأخبار)

(١) مثل الحساب . (٢) مثل الطب . (٣) مثل اللغة .

وإلى ما هو محمود ترتبط به مصالح الدنيا وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية (وهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ولو خلا البلد عمن يقوم به حرج أهل البلد ، وإذا قام به واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين ، وذلك كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فإنه ضرورى فى المعاملات ، وكذلك أصول الصناعات كالفلاحة والحياكة والسياسة) ، وإلى ما هو فضيلة (كالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب) .

أما العلوم الشرعية فهى محمودة كلها ؛ [١] وأصولها أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة رضى الله عنهم . وفروعها ما فهم من هـذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبهت لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره (كما فهم من قوله عليه السلام : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » أنه لا يقضى إذا كان حاقنا أو جائعاً أو متألماً بمرض) ، وهذا على ضربين أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا وتحويه كتب الفقـه والثانى ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه . ومقدمات الأصول : هى التى تجرى منها مجرى الآلات كتعلم اللغة والنحو وكعلم كتابة الخط ، وأما متممات الأصول فذلك فى علم القرآن وينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف ، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ، وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ ، وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً .

فالغزالى يعنى بعـلم طريق الآخرة « كيفية تصقيل مرآة القلب عن الخبائث » وهو قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة ، فعلم المكاشفة (علم الباطن) هو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية

(١) ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة .

بذات الله سبحانه وتعالى وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة .

أما علم المعاملة فهو علم أحوال القلب ما يحمد منها وما يذم ، وتقوية الأحوال المحمودة بمعرفة حقائقها وحدودها وأسبابها التى بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجة ماضعف منها . وأما الفلسفة فليست علماً بذاتها[١] فلم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة .

ويأتى لنا الغزالى ببيان علة ذم العلم المذموم ويقول إن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم فى حق العباد ولأحد أسباب ثلاثة :

(الأول) أن يكون مؤدياً إلى ضرر إما لصاحبه أو لغيره[٢] .

(الثانى) أن يكون مضراً بصاحبه فى غالب الأمر (كعلم النجوم) إذ هو قسمان : قسم حسابى نطق القرآن به إذ قال عز وجل « الشمس والقمر بحسبان » « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » ، وقسم يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب ، وهذا قد زجر عنه الشرع من ثلاثة أوجه :

(١) أنه مضر بأكثر الخلق إذ يبقى القلب ملتفتا إلى الكواكب ويرى الخير والشر محذوراً أو مرجوا من جهتها ، ويغفل عن أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالى .

(٢) أن أحكام النجوم (أن بعض الآثار تحدث عقيب سيرها) تخمين محض ، فالحكم به حكم بجهل لا بعلم .

(٣) أنه لا فائدة فيه .

---

(١) ويقول الغزالى : إنها أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب وهما مباحان ، و (ثانيها) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ووجه الحد وشروطه و (ثالثها) الالهيات وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته و (رابعها) الطبيعيات وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وبعضها مخالف للشرع والدين الحق.

(٢) كما يذم علم السحر .

(الثالث) الخوض فى علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم فى حقه (كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها وخفيها قبل جليها وكالبحث عن الأسرار الإلهية) .

ويحدثنا عن بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة فيقول : إن المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء ، هو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، أما فروض الكفايات ، فإن فى كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل واقتصادا وهو الوسط واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد ، فيجب مراعاة التدرج فيها « فلا يستغرق عمرك فى فن واحد منها طلباً للاستقصاء ، فإن العلم كثير والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها » .

واجبات المتعلم :

فالغزالى يرى أن نتعلم العلم وأن يأخذ كل منا منه بالقدر الذى ينفعه فى دينه ودنياه وأن يبتعد عن العلوم التى لاخير فيها لأنها مضيعة للوقت أو لأنها مزعزعة لليقين عابثة بإيمان القلوب ، وأن يقدر كل منا نفسه فى العالم وحده مع الله وبين يديه الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، ويتأمل فيما يعنيه مما بين يديه ويترك ماسواه . وهو لهذا يرى العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى . ويقول « إن نور البصيرة يلاحظ المعانى لا الصورة » فيجب على المتعلم تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف لأن « الصور فى هذا العالم غالبة على المعانى والمعانى باطنة فيها ، وفى الآخرة تتبع الصور المعانى وتغلب المعانى ، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية » ؛ ولكى تكون هذه الصورة المعنوية بالغة مبلغها من الكمال يرى أن يعرف المتعلم السبب

الذى به يدرك أشرف العلوم ويعلم نسبة العلوم إلى القصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره و « القلب تلك اللطيفة الربانية هى الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فمنه مصدرها وإليه مرجعها ، وأما البدن فطيتها التى تركبها وتسعى بواسطتها ، فيجب المحافظة على علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة بالاجتماع والتظاهر والتعاون ليصل إلى علم القلب براحة المطية وتهيئة الأسباب لها » ، وأن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه وتعالى والترقى إلى جوار الملأ الأعلى والملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ، وأن يقلل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا لأنه « مهما توزعت الفكرة ، قصرت عن دوك الحقائق » ، وأن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على العلم ، وأن يكون ذا قلب حاضر بأن يقبل العلم فهماً مصغياً فرحا ، وأن يحترز فى مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة « فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع » بل ينبغى أن يتقن أولا مذهب أستاذه ثم يصغى بعد ذلك للمذاهب والشبه . ويجب أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا ونظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، فإن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه ، ويجب أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضروريا وبعضها طريق إلى بعض .

واجبات المعلم :

ويرى الغزالى أن وظائف المرشد المعلم الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه . ويقول « كما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد ، التحاب والتوادد ،

ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون إلا التنافر والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا » . فواجب المعلم اعتبار المتعلمين أبناءه وأخوته واخوانه ، واجبه أن يحبهم ويرشدهم وأن يفهم أن الصلة بينه وبينهم صلة روحية قبل أن تكون مادية ، وهو بهذا الحب الروحى يجب أن لا « يطلب على إفادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب إليه ، ولا يرى لنفسه منة عليهم — وإن كانت المنة لازمة عليهم — بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم » . وهذا الذى يراه الغزالى هو الأصل فى الصلة بين المعلم والمتعلم ، ولكن لأن النفوس البشرية ضعيفة لا يجد أكثرها ما يحمل على خدمة العلم للعلم ، كان للمعلمين — لاسيما للعلوم الدنيوية — أجر ، الأصل فيه أن يفى بحاجاتهم وأن يظهروا به أمام الناس بالمظهر اللائق بهم وأن يستغنوا عن الناس من الوجهة المادية فيحفظوا بذلك كرامتهم وكرامة العلم . ولكن إذا نظرنا للصلة بين المعلم والمتعلم فى دور التعليم المصرية ، لوجدناها صلة مادية تدعو للألم وتبعث على التحسر ، ففى ابتدائى وثانوى — سواء فى المعاهد الدينية أو فى مدارس وزارة المعارف — تجد غالب الصلة بين التلميذ وأستاذه صلة تنافر وتباغض ، التلميذ يخاف من أستاذه ويخشاه ولكن لا يحبه ، والأستاذ لا يعطف على تلميذه وإن عطف عليه فلحاجة فى نفس يعقوب[١] ، ومن دواعى الأسف أن تكون هذه المادية الحقيرة هى عين الصلة بين الأستاذ وتلميذه فى المدارس العليا — حتى فى كليات الأزهر وكليات الجامعة المصرية — يحترم الطالب أستاذه لأنهما سيلتقيان فى الإمتحان الشفهى فهو يتقرب إليه بما قد يصل إلى حد الترلف والتملق المزرى لوهم أنه سينفعه بدرجة أو درجتين أو درجات أو على الأقل بتسهيل الأسئلة عليه ، وهو لهذا الوهم يشرب مرارة جهل أستاذه ولا يستطيع أن يناقشه خوف أن يحمل أستاذه

(١) أقربها إلى الأذهان أن يكون هذا ابن صديق أو قريب أو عظيم ، أو أنه مدرسه الشخصى فى المنزل يتقاضى منه أجرا زيادة عن أجره .

حب المناقشة رغبة فى التعجيز ، ولا يجرأ على أن يخطئه فى نظرية علمية أوأن ينقد أسلوب إلقاء أو يبدى جهلا فاضحاً ظاهراً من أستاذه أويتحدث عن ضعف ظاهر بين منه ، خوف يوم لقاء الامتحان الذى يتوعد به الأساتذة الطلبة أو يتوهم الطلبة أنه يوم الوعيد . وكان الأحرى أن تكون هناك صلة قلبية بين الأستاذ وتلميذه ، صلة حب خالية من الأغراض ، يعلم الأستاذ أنه أمين فلا يدع كما يقول الغزالى من نصح المتعلم شيئا « وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم هو القرب من الله تعالى » . وكل العلوم هذا هو غرضها سواء أكان مباشراً أم غير مباشر ، حتى العلوم الدنيوية التى يريد بها متعلمها كسب العيش هى علوم يراد بها أن تهيئه لعمل معين أو حرفة معينة أو وظيفة معينة يستغنى بها عن سؤال اللئيم ويقيم بأجرها أوده ويصرفه على حاجياته المادية فيخلص تفكيره من الأمور المادية وبذا يعنى بالروحية ،وكلما قويت عنايته بها قرب من الله تعالى . يجب أن يعلم الأستاذ أنه أمين فيجب كما يقول الغزالى «أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ . فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيج الحرص على الإصرار ، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته » ومن دواعى هذه الأمانة « أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة » و « أن يقتصر المتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله » و « أن يلقى إلى المتعلم القاصر ، الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه » .

هذه هى أمانة الأستاذ العلمية ، أما أمانته الخلقية فهى حبه لتلميذه الحب المجرد عن الغرض المادى ، المقصود به إفادته العلمية ، لأنه بهذا الحب يحبه ، لأن بالعطف يعطف الإنسان أو يحمل على العطف ، ويكون سبب الحب هنا هو تلك الصلة الروحية التى تربط بين اثنين يسعيان لغرض واحد شريف هو الوصول إلى الحقيقة والبحث عنها أنى وجدت . ويرى الغزالى فوق هـذا الحب لفائدة العلم « أن لا يطلب العالم الدنيا بعلمه بل يطلب الآخرة ويؤثرها ، وأن يكون غير مائل إلى الترفه فى المطعم والمشرب والتنعم فى الملبس والتجمل فى الأثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد فى جميع ذلك » وأن يكون أكثر اهتمام المتعلم بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه : وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة « فان المجاهدة تفضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلوب تنفجر منها ينابيع الحكمة من القلب . وأما الـكتب والتعليم فلا تفى بذلك » و « أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا ، بل ينبغى أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه » و « أن لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا ، فان سئل عما يعلمه تحقيقاً (بنص كتاب الله أو بنص حديث أو اجماع أو قياس جلى فى العلوم الدينية) أفتى ، وإن سـئل عما يشك فيه قال لا أدرى ، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية » .

مثال التعاون فى المناظرة :

والغزالى كما رأينا يدعو تلامذة العـلم الواحد إلى التحاب والتواد والتعاون ، ويحدثنا كمثال لما يراه فى التعاون العلمى عن المناظرة ،فيقول : إن الغرض من المناظرة . المباحثة عن الحق ليتضح « فإن الحق مطلوب ، والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيـد ومؤثر ، والتعاون

على طلب الحق من الدين » ويرى أن لا يشتغل بطلب الحق عن طريق المناظرة من لم يتفرغ من فروض الأعيان ، وأن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة (فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره ، عصى بفعله) وأن يكون المناظر مجتهداً يفتى برأيه ، وأن لا يناظر إلا فى مسئلة واقعة أو قريبة الوقوع غالبا ، وأن تكون المناظرة فى الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل « فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفى حضور الجمع ما يحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أو مبطلا » ، وأن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه بالخطا وأظهر له الحق ، وأن لا يمنع معينه فى النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال ، ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله هذا لا يلزمنى ذكره وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك (فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله) .

تقوية اليقين :

ويرى الغزالى أنه يجب أن يكون العلم شديد العناية بتقوية اليقين ويقول إن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين : أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك ، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء ، له أربع مقامات :

(١) الشك : وهو أن يعتدل التصديق والتكذيب .

(٢) الظن : وهو أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ، ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول لتجويز اختفاء أمر مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه .

(٣) اعتقاد مقارب لليقين : وهو أن تميل النفس إلى التصديق بشىء حيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تابى النفس عن قبوله ، ولـكن ليس ذلك عن معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والاصغاء إلى التشكيك والتجويز ، اتسعت نفسه للتجويز .

(٤) اليقين : وهو المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه ، فاذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر أو بحس أو بغريزة العقل أو بتواتر أو بتجربة أو بدليل ، ويرى الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء أنه لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك ، بل إلى استيلائه وغلبته على العقل ، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشىء ، وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع ، سمى ذلك يقينا .

فعلى اصطلاح المتكلمين لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت فى نفى الشك ، وكل علم لا شك فيه يسمى يقينا عندهم ، وعلى اصطلاح الفقهاء والمتصوفة يوصف اليقين بالضعف والقوة ، ويرى الغزالى أن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعاً ، وهو نفى الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها . ويقول : إن درجات اليقين فى القوة والضعف لا تتناهى ، وتفاوت الخلق والاستعداد للموت تفاوت اليقين بهذه المعانى ، أما التفاوت بالخفاء والجلاء فلا ينكر أيضاً ، وكذا فيما يتطرق إليه التجويز وفيما انتفى الشك عنه ، فإنك تدرك التفرقة بين تصديقك بوجود أمرين لا تشك فيهما إذ مستندهما جميعاً التواتر ، ولـكن ترى الأول أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى ، لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين مثلا . وكذلك ليس وضوح ما لاح بدليل كوضوح ما لاح بالأدلة الـكثيرة مع تساويهما فى نفى الشك . وأما القلة والـكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين كما يقال فلان أكثر علماً من فلان أى معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى

جميع ما ورد الشرع به ، وقد يكون قوى اليقين فى بعضه .

ويرى الغزالى أن العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه . وقد سماه الله نورا فى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة » وسمى العلم المستفاد منه روحاً ووحيا وحياة فقال تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » وقال سبحانه « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » ، وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله « يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

والعقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان :

(١) الغريزة التى يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وتدبير الصناعة الفكرية[١] .

(٢) العلوم الضرورية التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات[٢] .

(٣) العلوم التى تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال[٣] .

(٤) أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى ان يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعيـة إلى اللذة العاجلة ويقهرها ، فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث أن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيـه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة .

ويقول الغزالى إن الغريزة والعلوم الضرورية بالطبع ، والتجارب وثمرتها الأخيرة وغايتها القصوى فى معرفة عواقب الأمور بالاكتساب ، وإن الناس يختلفون فى تفاوت العقـل ، والتفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى وهو العلم الضرورى[٤] وأما الأقسام الثلاثة

---

(١) وهذا هو الأس والمنبع . (٢) وهو أقرب إلى المنبع .

(٣) وهذا فرع الأول والثانى إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد التجارب .

(٤) فان من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد ، عرف أيضاً استحالة كون الجسم فى مكانين وكون الشىء الواحد قديماً وحادثاً ، وكل ذلك يدركه محققاً من غير شك .

فالتفاوت يتطرق إليها ، أما القسم الرابع فلا يخفى تفاوت الناس فيه ، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة (إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض) ولكن غير مقصور عليه (فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا ؛ وإذا كبر وتم عقله قدر عليه ، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا) ، وقد تكون نسبة التفاوت فى العلم المعرّف لغائلة تلك الشهوة (ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة ، وإذا كان علمه أتم ، كان خوفه أشد) ، فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل[1] ، وإن كان من جهة العلم فهو عقل لأنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه ، وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل (فانها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد) . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب ، فتفاوت الناس فيها لاينكر ، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ، ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة وإما تفاوتا فى الممارسة « فالتفاوت فى الغريزة لا سبيل إلى جحده ، فإنه مثل نور يشرق على النفس ومبادىء اشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ، وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر » .

ويرى الغزالى أن ما اتصل بالعقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوئه ليحفظه حفظاً ، ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئاً فشيئاً ، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق ، وذلك مايحصل فى الصبى بغير برهان ؛ وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد

(١) ويقول الغزالى عند شرحه عجائب القلب إن العقل مشترك لمعان مختلفة ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يراد به محل الإدراك أعنى المدرك .

المحض، وهو غير خال عن نوع من الضعف فى الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه.

أى أن الغزالى يرى وجوب تلقين الصغير والعامى العقيدة الصحيحة وتقويتها بالتقليد وتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه والاشتغال بوظائف العبادات ، ولذا يرى أن علم الكلام حرام بالنسبة لهؤلاء لأنه مثير للشبهات محرك للعقائد مزيل لها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل فى الإبتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق ، وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ، وهذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل. ولكن الغزالى مع ذلك يرى أن لعلم الكلام منفعة واحدة وهى حراسة العقيدة على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل «فان العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه» ، ويرى أنه إذا وقعت الإحاطة بضرر هذا العلم ومنفعته فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا فى موضعه فى وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة. فيقول إن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الذى ذكرناه «فان تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ويزلزل عليهم الاعتقاد ، ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح» ، وأما العامى المعتقد للبدعة فينبغى أن يدعى إلى الحق «بالتلطف لا بالتعصب ، وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر فى القلب ، القريب من سياق أدلة القرآن والحديث ، الممزوج بفن من الوعظ والتحذير ، فان ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين».

ويرى أن استقصاء الجدل إنما ينفع فى موضع واحد؛ وهو أن يفرض عامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه ، فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى

اعتقاد الحق » وذلك فيمن ظهر له الأنس بالمجادلة مايمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية ، فقد انتهى هذا إلى حالة لايشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه » . وفى البلاد التى تقل فيها البدعة ولا تختلف المذاهب يرى أنه يجب عـدم التعرض للأدلة ، مع التربص لوقوع شبهة فان وقعت ذكر بقدر الحاجة . فالغزالى يرى إذن أن العالم بعـلم الـكلام ينبغى أن يخصص بتعليم هـذا العلم المتجرد للعلم والحريص عليه « لأن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت » ومن توفر فيه الذكاء والفطنة والفصاحة وفى طبعه الصلاح والديانة والتقوى ، ولم تـكن الشهوات غالبة عليه .

ظواهر العلوم وأسرارها :

وهو يريد بهذا كله أن يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار ، وبعضها جلى يبدو أولا وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسرا الخالى عن كل شىء من أشغال الدنيا سوى المطلوب.

ويقول إن الأسرار الخفية التى يختص المقربون بإدراكها ولا يشاركهم الأكثرون فى علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام :

(١) أن يكون الشىء فى نفســه دقيقاً تـكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص ، وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله ، ومن جملته الروح وبعض صفات الله تعالى .

(٢) ماهو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه ، ولـكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين : فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش ، فالـكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته ، حق فى نفسه وقد أضر سماعه بقوم إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحـكمة والرضا بالقبيح والظلم ، وكذلك سر القدر ، ولو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل هذا الوهم عنهم .

(٣) أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب لأن مصلحته فى ذلك : وإنما يعرف هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى ، أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » ، فعلم أنها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى . وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر .

(٤) أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر الظاهر والثانى كاللباب الباطن .

(٥) أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال ، فالقاصر بفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه : وهذا كقوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » فالبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير !

تقسيم الغزالى للاحياء وتقسيمنا للصفوة :

ولقد قسم الغزالى كتابه (إحياء علوم الدين) إلى أربعة أجزاء : ربع العبادات ، ربع العادات ، ربع المهلكات ، وربع المنجيات ، ولكننا وبحثنا قاصر على الثقافة الروحية فى هذا الكتاب سنتبع تقسيما يتلاءم مع البحث بعد تمهيد حديث الغزالى عن العلم ، ولذا سيكون البحث فى ثلاثة أبواب : ما بينك وبين الله ، ما بينك وبين الناس ، ما بينك وبين نفسك ، وسيقسم كل باب إلى عدة فصول وكل فصل إلى عدة جزئيات حتى يسهل البحث وحتى نستطيع أن نأتى بخلاصة وافية للحديث عن الثقافة الروحية فى هذا الكتاب الجليل .

على أنا يجب أن نلاحظ هذه الصلة القوية التى تربط بين أبواب البحث ، فالقلب قلب وصفاته هى صفاته فيما بينك وبين خالقك وبينك وبين الناس وبينك وبين نفسك ، إذا طاير فطيارته مشعرة باللذة فى جميع هذه الصلات ، بفوارق لا تخرج عن أن تكون فى الكم والكيف فى قوة الصلة ، كذلك قل عن الصلة بينك وبين الله إذ أنها إذا قويت وإذا كنت له نعم العبد ، فإنها لا شك معبرة عما بينك وبين الناس وبينك وبين نفسك . لأنه لن يعمر ما بينك وبين الله إلا إذا عمر ما بينك وبين الناس وما بينك وبين نفسك ، ولأنك إذا أحببت الله والناس ستكون مطمئنا ذا قلب عامر بالإيمان خفاق بالحب !

معانى القلب والنفس والروح :

ويقول الغزالى إن القلب يطلق لمعنيين : أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه . والمعنى الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتعلقه بالقلب الجسمانى يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات . والروح أيضاً يطلق لمعنيين : أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ويجرى فى البدن ويفيض أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها . والمعنى الثانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذى أراده الله تعالى بقوله « قل الروح من أمر ربى » .

والنفس هو أيضاً مشترك بين معان وتعلق بغرضنا منه معنيان : أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » والمعنى الثانى هو اللطيفة التى هى الانسان بالحقيقة وهى نفس الانسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فهى النفس

المطمئنة إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات والنفس اللوامة إذا صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها ،والنفس الأمارة بالسوء إن أذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان .

جنود القلب :

ويقول الغزالى إن للقلب جندين جند يرى بالأبصار وهى سائر الأعضاء الظاهرة والباطنة (وقد خلقت مجبولة على طاعته) وجند باطنة لا ترى إلا بالبصائر وتحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث (قد يعبر عنه بالإرادة) ومستحث إما إلى جلب النافع الموافق (كالشهوة) وإما إلى دفع الضار المنافى (كالغضب) والثانى القدرة وهو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ؛ والثالث (الادراك والعلم) وهو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس ، وهو قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس .

ويقول : إن مع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة (وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود) ، وهذا الصنف الثالث ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس ، وإلى ما أسكن منازل باطنة وهى تجاويف الدماغ وهى أيضا خمسة ، حس مشترك وتخيل وتفكير وتذكر وحفظ .

ويضرب لنا أمثلة القلب مع جنوده الباطنة فيقول : إن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاما ، فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه ، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه وفيه هلاكه ، وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر وحقه أن يستعين بهذا الجند .

ويقول إن الانسان اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك اجتمعت عليه أربعة أنواع من الأوصاف مجموعة فى القلب (وهى السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية) .

ومحل العلم هو القلب ، ويرى الغزالى أنه بالاضافة إلى حقائق المعلومات

كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات ، فكما أن للمتلون صورة ، ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع فى مرآة القلب وتتضح فيها .

أسباب خلو القلب عن العلوم :

والعالم عند الغزالى عبارة عن القلب الذى فيه مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء ، والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة ، والقلب مرآة مستعدة لأن تتجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها . ويرى أن القلوب إنما خلت عن العلوم التى خلت عنها لأسباب خمسة :

(١) نقصان فى ذاته : كقلب الصبى .

(٢) لكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات : فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه .

(٣) أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة ، فان قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فانه لا تتضح فيه جلية الحق لأنه لا يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره إلى التأمل فى حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية ، فلا يكشف له إلا ما هو متفكر فيه .

(٤) الحجاب : فان المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد .

(٥) الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب : فان طالب العلم لا يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه

حتى إذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار ، فعند ذلك يكون قد عثر على جهـة المطلوب فتنجـلى حقيقة المطلوب لقلبه .

تصفية القلب :

ويرى الغزالى أن مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه « قد أفلح من زكاها » ويرى أن مراد تزكيته حضور أنوار الإيمان .

الباب الأول

ما بينك وبين الله

« روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل لرسول الله ، يارسول الله أين الله ؟ في الأرض أو فى السماء ؟ قال : فى قلوب عباده المؤمنين »

الفصل الأول

معرفة الله

١ — العلم بالله : يقول الغزالى إن « خاصية الإنسان العلم والحكمة ، وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فبه كمال الإنسان ، وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال ، فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التى لأجلها خلق ، فخاصية الإنسان هى معرفة حقائق الأشياء » ، ويقول : إن جملة عالم الملكوت والملك إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأنها محيطة بكل الموجودات « إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة ، وهو سبب استحقاق الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله »

٢ — ويقول إن العلوم التى ليست ضرورية إنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال وتختلف الحال فى حصولها ، فتارة تهجم على القلب إلهاما

(لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل) كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم اعتباراً واستبصاراً ، وأن القلب مستعد لأن تنجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها ، لولا الحجب ، وقد تهب ريح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فينجلى فيها بعض ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام ، فيعلم به ما يكون فى المستقبل ، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء ، وينكشف أيضاً فى اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شىء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالى إلى حد ما دوامه فى غاية الندور . ولذلك لم يحرص أهل التصوف على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون بل قالوا « الطريق الإقبال على الله تعالى » .

٣ — ولذا يرى الغزالى أن اسم الفقه فى العصر الأول كان مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، وأنه كان متناولا للفتاوى فى الأحكام الظاهرة ولكن بطريق العموم أو بطريق الاستتباع وأن قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها » أراد به معانى الإيمان دون الفتاوى . وكذلك يرى أن لفظ العلم كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله فى عباده وخلقه ، وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط بعلوم الشرع بشىء سوى رسوم جدلية فى مسائل خلافية . وكذلك كان التوحيد عبارة عن أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله .

ولذا كان التذكير المحمود شرعاً هو التكلم فى علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ، والتذكير بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد فى شكره ، وتعريف

عيوب الدنيا وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة على الدنيا .

ويرى أنه لا ينبغى أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس .

والحكمة[1] هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » .

٤ — ولذا يرى أنه يجب على الإنسان أن يفهم التوحيد بان يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها ، وأن يوقن بالثواب والعقاب بأن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، موقناً بأن الله تعالى مطلع عليه فى كل حال مشاهد لهواجس ضميره وخفايا خواطره وفكره ، ويظهر أثر الخشية عليه ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً الله تعالى ، وكانت صورته دليلا على عمله ، فيكون أكثر بحثه عن علم الأعمال (فإن أصل الدين التوقى من الشر) ، ويكون اعتماده فى علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه ، وأن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور ، وإن اتفق عليها الجمهور .

٥ — معنى كلمتى الشهادة : ويقول الغزالى إن معنى كلمتى الشهادة أن الله منزه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدور ، لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام ، ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ولا تحله الأعراض ، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء ، لا يحده المقدار ولا تحويه الأفكار ، ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات ، وهو قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شىء شهيد ، تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان ، بائن عن خلقه بصفاته ، ليس فى ذاته سواه

(١) ويعترض الغزالى على إطلاق اسم الحكيم على الطبيب والشاعر والمنجم .

ولا فى سواه ذاته ، مقدس عن التغير والانتقال ، لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزهاً عن الزوال وفى صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال ، وهو فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار ، وهو تعالى حى قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ؛ ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وهو ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت ، وهو عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى ، وهو تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات ، بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد ، لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته . ولا قوة على طاعته إلا بمشيئته وإرادته ؛ وهو تعالى سميع بصير ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، وهو تعالى متكلم آمر ، ناه ، واعد متوعد ، بكلام أزلى قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وهو سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها ، حكيم فى أفعاله . وأما الكلمة الثانية فهى الشهادة للرسل بالرسالة ؛ وأنه بعث النبى الأمى القرشى محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والأنس ، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها ، وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد مالم تقترن بها شهادة الرسول ، وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٦ — ويقول الغزالى إن الركن الأول من أركان الإيمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنه واحد ، وأن مدار هذا الركن على عشرة أصول :

(١) معرفة وجوده تعالى (والحادث لايستغنى فى حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث ، فإذن لا يستغنى فى حدوثه عن سبب) .

(٢) العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول (وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضاً إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى مالا نهاية ، وما تسلسل لم يتصل أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول) .

(٣) العلم بأن الله تعالى ليس لوجوده آخر ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن (لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو : إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ؛ ولو جاز أن ينعدم شىء يتصور دوامه بنفسه ، لجاز أن يوجد شىء يتصور عدمه بنفسه ، فللوجود سبب وللعدم سبب ، وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه) .

(٤) العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز .

(٥) العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر (لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر ، والجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار : وهذه سمات الحدوث) .

(٦) العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال فى محل (لأن العرض ما يحل فى الجسم ، وكل جسم هو حادث لا محالة ويكون محدثه موجوداً قبله ، والله موجود فى الأزل وحده ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ، وهو عالم قادر مريد خالق ، وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض) .

(٧) العلم بأنه تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات (إذ هو الذى خلقها بواسطة خلق الإنسان ، وما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء إلا لأنه قبلة الدعاء ولما فيه من إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء) .

(٨) العلم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالإستواء ، وهو الذى لاينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق إلى سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالإستواء إلى السماء .

(٩) العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار ، مقدسا عن الجهات والأقطار ، مرئى بالأعين والأبصار فى الدار الآخرة لقوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » (والرؤية نوع كشف وعلم ، إلا أنه أتم وأوضح من العلم) .

(١٠) العلم بأنه عز وجل واحد لا شريك له و « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (فلو كانا اثنين وأراد أحدهما أمراً ، فالثانى عاجز مقهور إن كان مضطراً إلى مساعدته ، وإن قدر على مخالفته فهو قوى قاهر والأول ضعيف قاصر) .

وأما الركن الثانى من أركان الإيمان فهو العلم بصفات الله تعالى ، بأنه « هو على كل شىء قدير » و « هو بكل شىء عليم » ، وأنه حى ، وأنه هو المبدىء المعيد والفعال لما يريد ، سميع (بلا أذن) بصير (بلا حدقة) ، لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير . وأنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره .

وأن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير ، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات (فكلام الله قديم

وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه) . وأن علمه قديم (فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي) وأن إرادته وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي (إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريداً لها) .

والركن الثالث من أركان الإيمان هو العلم بأفعال الله تعالى ، وأن كل حادث في العالم هو فعله وخلقه واختراعه ، وأن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد ، لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً ، وخلق الاختيار والمختار جميعاً ، وأن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد ، فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه وتعالى ، وأن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه ، إذ هو الموجب والآمر والناهي ، وأنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق مالا يطيقونه ، وأن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق ، لأنه متصرف في ملكه (والظلم عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، وهو محال على الله تعالى) ، وأنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء ، فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده (إذ القبيح مالا يوافق الغرض ، فإن أريد بالقبيح مالا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح ، كما لا يتصور منه ظلم ، وإن أريد القبيح مالا يوافق غرض الغير فهذا مجرد تشبه ، ثم معنى الحكيم العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته) ، وأن معرفة الله سبحانه وتعالى وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل ، خلافا للمعتزلة (لأن العقل وإن أوجب الطاعة فإما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال ، لأن العقل لا يوجب العبث ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض ، والغرض محال في حق المعبود تعالى ، ولا غرض هنا

للعبد فى الحال إذ يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه ، وليس فى المآل إلا الثواب والعقاب) ، وأنه لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين .

ويحدثنا الغزالى عن ركن رابع من أركان الإيمان سماه السمعيات وأهمها الحشر والنشر و « من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وأن الجنة والنار مخلوقتان .

٧ — الإيمان والإسلام : ويقول إن موجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص ، لأن الإيمان لغة عبارة عن التصديق (ومحل التصديق القلب ، واللسان ترجمانه) ، وأما الإسلام فعبارة عن التسليم (وهو عام فى القلب واللسان والجوارح) وقد ورد الشرع باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد كقوله تعالى « ياقوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » وورد على سبيل الاختلاف كقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ، وورد على سبيل التداخل كما ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن أى الأعمال أفضل فقال « الإسلام » فسئل أى الإسلام أفضل فقال « الإيمان » .

ويقول الغزالى إن الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه[1] :

(١) أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر ، وهو إيمان العوام ، وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى ، والعمل يؤثر فى نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء فى نماء الأشجار ، ولذلك قال تعالى « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » ، فالإيمان يزيد وينقص وذلك بتأثير الطاعات فى القلب .

(١) وهو عنده ثلاث مراتب : إيمان التقليد المحض (وهو إيمان العوام) وإيمان ممزوج بنوع استدلال (وهو إيمان المتكلمين) وإيمان مشاهد بنور اليقين (وهو إيمان العارفين) .

(٢) أن يراد به التصديق والعمل جميعاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .

(٣) أن يراد به التصديق اليقينى على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة ، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ، ولكن يلاحظ أن الأمر اليقينى الذى لا شك فيه ، تختلف طمأنينة النفس إليه ، فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد ؛ طمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث ، وإن كان لا شك فى واحد منهما . فإن اليقينيات تختلف فى درجات الإيضاح ودرجات طمانينة النفس إليها .

فالغزالى يرى السبيل الموصلة لمعرفة الله معرفة صفاته وأفعاله ، وأن معرفة الله الحقة مؤدية إلى أن نعرف أن « الله أكبر » وهذه المعرفة تصل بك إلى أن يكون رجاؤك فى الله وحده وعملك له وحده ، وهذا يصل بك إلى أعظم مرتبة من مراتب التوحيد التى سنحدثك عنها فى الفصل الآتى ، وتصل بك هذه المرتبة العظيمة إلى ما هو أعظم منها بأن ينكشف لك ألا فاعل إلا الله تعالى وأن كل شىء فى الوجود من الله وبالله ولله .

الفصل الثاني

توحيد الله والتوكل عليه

٨ — مراتب التوحيد : ويقول الغزالى إن التوحيد يترجم قولك لا إله إلا الله وحده لا شريك له : وإن هذا التوحيد له أربع مراتب :

(١) أن يقول الانسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له ، وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذى صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره[١] .

(٢) أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام[٢] .

(٣) أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار .

(٤) أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه .

ويوضح الغزالى المرتبة الثالثة[٣] بأن ينكشف لك ألا فاعل إلا الله تعالى

---

(١) وهذا توحيد المنافقين ويسميه الغزالى قشر التوحيد .

(٢) ويسمى الغزالى هذا بالقشر الثانى للتوحيد وهو أن لا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشمل ظاهر القلب على إعتقاده والتصديق به وهو توحيد عوام الخلق ، والمتكلمون حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة .

(٣) ويسميها لباب التوحيد بأن يرى الأمور كلها من الله وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد إتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده .

وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم ، فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه « فان تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ، وإذا انكشف لك هذا ، لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض . ويضرب لنا الغزالى مثل القلم وقد خط به صاحبه كلمة نجاة لك مثلا فهل تنسب هذه النجاة للقلم أم تنسبها لصاحبه ؟ لا ريب أن تلك الكلمة وقد يكون فيها لك الخير كله منسوبة لمن بيده القلم ، ولكن هل يملك لك حامل القلم أقل نفع أو أقل ضر ؟ الجواب : لا ! . . . لأنه لا يملك لنفسه جلب أقل نفع أو دفع أقل ضر ، فيجب إذن أن لا ترجو سوى الله لأن حامل القلم (وهو فى مثالنا مصدر الأمر) مسخر تحت قهر الله وقدرته مردد فى قبضته . فالله هو الأول بالإضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لايزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود ، وهو الباطن بالإضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ، وهو الظاهر بالاضافة إلى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت .

ولكن ما القول فى أمر زيد (وليكن بترقية فلان أو بفصله من وظيفته) أليس إذا شاء أن يكتب كتب وإن شاء أن يمتنع امتنع ؟ يقول الغزالى إن الفعل الاختيارى (ككتابة الانسان بالأصابع) والفعل الارادى (كتنفسه بالرئة والحنجرة) منسوب إليه ، ولكن الجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى (كالتنفس) لأنه ضرورى « فالفعل الاختيارى هو

مظنة الالتباس وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، ولـكن يوضحه أن الارادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك . والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنـة بأنه لا يوافقك من غير تحير وتردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه ، فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد بدنك بسيف فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق لك فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة اليد بدفع السيف من غير روية فـكرة ويكون ذلك بالارادة ، ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرى أنه موافق أم لا ، فيحتاج إلى روية وفـكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك ، فاذا حصل بالفـكر والروية العلم بأن أحدهما خير ، التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر ، فانبعثت الارادة هينا كما تنبعث لدفع السيف ، فاذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير ، سميت هذه الارادة اختياراً مشتقاً من الخير أى هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الارادة . فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهى التى انبعثت منها باشارة العقل فيما له فى ادراكه توقف ، ولا يتصور أن تنبعث الارادة إلا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل . فاذا معنى كونه مجبوراً أن ما حصل حصل من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختاراً أنه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقا وحدث الحـكم أيضاً جبراً فاذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار فى الاحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار يسمى كسبا » .

ويقول الغزالى إن حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقـدرة الأزلية ، فبعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط ، فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ، ولا علم إلا بعد حياة ، ولا حياة إلا بعد محل الحياة !

ولكن كيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ، ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد . فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا . وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ؟ يقول الغزالى إن الله فاعل بمعنى أنه المخترع للوجد ، ومعنى كون العبد فاعلا أنه العمل الذى خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع « وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى » فاسم الفاعل فى الحقيقة لله ولغيره بالمجاز .

٩ — التوكل على الله : ويقول الغزالى « إن لمقام التوكل على الله اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما اعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به ولا يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى وليس فى

الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ، ولو كان ادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلماً يناقض العـدل ، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهيـة ، بل كل فقر وضر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة ، وكل نقص فى الآخرة بالإضافة إلى شخص ، فهو نعيم بالإضافة إلى غيره إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة» .

فالغزالى يقول إن الخير والشر مقضى به وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقـدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

ويقول « إن التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحـده ، فإن ثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمتـه لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحـده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول (حركة) ولا قوة (قدرة) إلا بالله » . ويقول إن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فهذا إما لضعف اليقين بإحدى هـذه الخصال الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته .

١٠ — ويرى الغزالى أن التوكل فى القوة والضعف ثلاث درجات :

(١) أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل ، وهذا لا يترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به ، أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته .

(٢) أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحـد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفزعه فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذى له ويظن أنه طبع ، فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبى بأمه فيكون متوكلا حقاً ، وهذا يقتضى ترك السؤال من غير الله .

(٣) أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل ، لا يفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعـلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبراً ، فهو مثل صبى علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه ، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمـه فالأم تحمـله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه . وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل ، فـكم من نعمة ابتدأها (قبل السؤال والدعاء) بغير الاستحقاق .

١١ — وقد يظن أن معنى التوكل ترك الـكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم ، فيقول الغزالى إن هذا ظن الجهال ، فالمقطوع به (وذلك مثل الأسباب التى ارتبطت المسببات بهـا بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف) أن لا شبع بلا أكل وأن الخبز لا يسعى إليـك بل تسعى إليـه ، وأنت الذي تمضغه وهو لن يمضغ نفسه ولن يسخر الله لك ملكا لتوصيله إلى معدتك ، والمقطوع به أن الثمر لا يأتى من غير زرع ، وأنك لن يكون لك نسـل من غير زواج ، وهكذا . . فليس التوكل فى هذا المقام بالعمل بل بالعلم (بأنه تعالى خلق الطعام واليد والأسنان الخ . . . وأنه الذى يطعمك

ويسقيك) والحال (بأن يسكن قلبك وتعتمد على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام الخ ... لأن اليد قد تفلج وقد يطرأ عليك فى الحال ما يزيل عقلك ويبطل حركتك الخ ..) .

أما الأسباب التى ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها (كالذى يسافر فى البوادى التى لا يطرقها الناس إلا نادراً ويكون سفره من غير استصحاب زاد) فهذا ليس شرطاً فى التوكل ولكن فعله جائز بشرط أن يكون قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام (مثلا) أسبوعاً وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر فى ذكر الله تعالى .

أما ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذى فيه الناس كلهم أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح ، فأما أخذ الشبهة أو الاكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب ، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل . أى أن الغزالى يرى أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج ، وأن الذى يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون ، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل ، وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً . ويقول إن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيا فى عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف

بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى ، فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة » . ويقول الغزالى إن صواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخار ، فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله ، جبراً لضعفهم وتسكينا لقلوبهم .

والضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال ، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً ، أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك ، ولكن يلاحظ أن ترك الموهوم منها (وهى التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الرقية والكى) من شرط التوكل ، ولترك الأسباب الدافعة إن كانت مقطوعة (أو مظنونة) وجه إذا ناله الضرر من انسان ، فانه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل فى شىء إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لاعانته على الدين وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقض التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لإن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا واما ظنا إذ قال تعالى « خذوا حذركم » وقال صلى الله عليه وسلم للأعرابى لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله « اعقلها وتوكل » ، وهو يكون متوكلا بالعلم (بأن يعلم أن اللص مثلا إن اندفع لم يندفع بكفايته فى اغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه) والحال (بأن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به فى بيته ونفسه من خير وشر) .

والأسباب المزيلة للضرر أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر

العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر ابواب الطب أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الأسباب الظاهرة فى الطب ، وإلى موهوم كالكى والرقية أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت ، وأما الموهوم فشرط التوكل تركه ، والاعتماد عليه والاتكال إليه غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة (كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء) ؛ ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص (ومن أودع العقاقير منافع الأشياء غير الله ؟) ؛ ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل الرسول الكريم وقوله « تداووا عباد الله ، فان الله خلق الداء والدواء » .

ويقول الغزالى إن كتمان المرض واخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر ، لأن الرضى بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ، ومع هذا فالاظهار لا بأس به إلا إذا صحت فيه النية والقصد ، ومقاصد الاظهار ثلاثة :

(١) ان يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية .

(٢) أن يصف لغير الطبيب، وكان ممن يقتدى به ، وكان مكينا فى المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض ، بل حسن الشكر .

(٣) أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة .

الفصل الثالث

عبادة الله تعـــالى

١٢ ــ الطهارة : قال تعالى « مايريدالله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ، ولـكن يريد ليطهركم » ، ويقول الغزالى إن لهذه الطهارة أربع مراتب :

(١) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (بالاستنجاء فإذا فرغ منه اشتغل بالغسل بإزالة ما على البدن من نجاسة إن كانت ، وصب الماء على الرأس ثم على الشق الأيمن ثم الشق الأيسر ثلاثة فى كل) فإذا فرغ منه . . . اشـتغل بالوضوء بغسل يديه والمضمضة والاستنشاق وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسـل الرجلين ــ ثلاثاً فى كل ــ أو التيمم بالمسح بالتراب الخالص اللين إن تعذر عليه استعمال الماء لفقده أو بمانع له عن الوصول إليه ، أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو عطش رفيقه أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنى .

(٢) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

(٣) تطير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

(٤) تطهير السر عما سوى الله تعالى .

١٣ ــ الصلاة : والصلاة ذكر لله عز وجل ، إذ قال الله تبارك وتعالى « وأقم الصلاة لذكرى » ويقول الغزالى إن الذكر فى الصلاة هو محاورة ومناجاة مع الله عز وجل (حمد وثناء وتضرع ودعاء) ، والمقصود الحروف من حيث أنه نطق ، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما فى الضـمير ، ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما

التعظيم قطعاً ولا يكون معظما لله عز وجل الغافل عنه ، فحضور القلب هو روح الصلاة .

وعلاج إحضار القلب صرف الهمة إليها ، وكذلك يجب التفهم بادمان الفكر بعد حضور القلب وصرف الذهن إلى إدراك المعنى بالإقبال على الفكر ودفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها بالنزوع عن تلك الأسباب التى تنجذب الخواطر إليها وهجوم حب الله على القلب لتصفو صلاتك عن الخواطر . وكذلك يجب عليك فى صلاتك تعظيم الله بمعرفة جلاله وعظمته وحقارة النفس وخستها ، وأن تهابه (والهيبة خوف مصدره الإجلال) وأن تكون راجياً بصلاتك ثواب الله عز وجل وأن تكون حيياً مستشعراً التقصير فى العبادة متوهماً الذنب لعلمك بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل .

١٤ — سبب موارد الخواطر : ويقول الغزالى رضى الله عنه « إن سبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً فى ذاته باطناً ، أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر ، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ؛ ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ، ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق به فكره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب (بأن يغض بصره أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره) . وأما الأسباب الباطنة فهى أشد ، فإن من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا ، لا ينحصر فكره فى فن واحد ، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه فى الصلاة وشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة ، فإن كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق ، وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة الشاغلة له عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود

إلى مهماته ، وأنها وإنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن الشهوات وقطع تلك العلائق ، أما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين ، بل لا يزال يجاذبها وتجاذبه ثم تغلبه وتنقضى جميع صلاته فى شغل المجاذبة »

١٥ — الزكاة : وقد قال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، وهو ربع العشر ، ويقول الغزالى إن على مريد الآخرة بزكاته وظائف :

(١) فهم وجوب الزكاة ومعناها ، ووجه الامتحان فيها شكر النعمة وتطهير النفس من صفة البخل بأن تتعود بذل المال وامتحان حبنا لله بمفارقتنا لجزء من أموالنا « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة » .

(٢) التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات .

(٣) الأسرار ، فان ذلك أبعد عن الرياء والسمعة .

(٤) أن يظهر حيث يعلم أن فى اظهاره ترغيباً للناس فى الاقتداء .

(٥) أن لايفسد صدقته بالمن (بذكرها) والأذى (باظهارها والتكبر على الآخذ وتعييره بالفقر وانتهاره وتوبيخه) .

(٦) أن يستصغر العطية فانه إن استعظمها أعجب بها ، والعجب محبط للأعمال .

(٧) أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه .

(٨) أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ، فيطلب الأتقياء ، لأن التقى يستعين به على التقوى ، وأن يكون من أهل العلم خاصة إعانة له على العلم ، وأن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد بأنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة ، وأن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى ، أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته ، وأن يكون معيلا أو محبوسا

بمرض أو سبب من الأسباب ، وأن يكون من الاقارب فتكون صدقة وصلة رحم ، والأصدقاء وإخوان الخير يتقدمون على العارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب .

١٦ — القابض : ويرى الغزالى أن وظائف القابض :

(١) أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة ليكفى همه بجعل همومه هما واحداً وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر ، ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله ، فان لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عزوجل ، وإلا كان مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه .

(٢) أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه من كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وذلك لا ينافى رؤية النعمة من الله سبحانه ، ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه .

(٣) أن ينظر فيما يأخذه ، فان لم يكن من حل ، تورع عنه « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

(٤) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه فى مقدار ما يأخذه ؛فلا يأخذ إلا المقدار المباح ؛ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق[١]

١٧ — صدقة التطوع : ويوجد فى الاسلام غير الزكاة صدقة التطوع إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » ، ويقول الغزالى إنا لا نحكم حكما باتا بأن اخفاء الصدقة أفضل فى كل حال أو اظهارها أفضل ، بل يختلف ذلك باختلاف النيات ، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص ، وإن كان على

---

(١) كأن كان فقيراً أو مسكيناً أو غازيا فى سبيل الله أو ابن سبيل الخ الثمانية (راجع آية إنما الصدقات للفقراء والمساكين ...) .

الجملة الأخذ فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسلمها ، والاخفاء أبقى للستر على الآخذ ، وأسلم لقلوب الناس وألسنتهم (فانهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه) ، واعانة المعطى على إسرار العمل ، وعدم اذلال وامتهان الآخذ (وليس للمؤمن أن يذل نفسه) ، واحتراز عن شبهة مشاركة الحاضرين فيها . ولكن مع هذا فى الاظهار والتحدث اخلاص وصدق واقامة لسنة الشكر « وأما بنعمة ربك فحدث » وبيان أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عز وجل ، والسر والعلانية فى حقه واحد .

١٨ — الصوم :أما الصوم فيقول الغزالى فيه إنه ثلاث درجات : صوم العموم (بكف البطن والفرج عن قضاء الشهوة) وصوم الخصوص (بكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام) وصوم خصوص الخصوص (بصوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية) . وأما صوم الخصوص بكف الجوارح عن الآثام ، فتمامه بستة أمور :

(١) غض البصر وكفه عن الاتساع فى النظر (النظر بشهوة) إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل .

(٢) حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، والزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتعالى وتلاوة القرآن .

(٣) كف السمع عن الاصغاء إلى كل مكروه ، لأن كل ما حرم قوله حرُم الاصغاء إليه .

(٤) كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل وعن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الأفطار (بالكف عن الطعام الحرام) .

(٥) أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الأفطار بحيث يمتلىء جوفه : إذ مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى

(٦) أن يكون قلبه بعد الأفطار معلقاً مضطرباً بين خوف رد صومه ورجاء قبوله .

١٩ — الحج : وقد فرض الله تعالى الحج على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع[1] ويقول الغزالى إن أول الحج فهم موقعه فى الدين ، ويوضح ذلك بقوله إنه لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات ، ولأجل هذا انفرد الرهبانيون فى الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال ، فالحج رهبانيتنا ، فشرف الله البيت العتيق بالاضافة إلى نفسه تعالى ، وجعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، يقصده الزوار من كل فج عميق شعثا غبراً متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ فى عبوديتهم وأتم فى اذعانهم ، ولذلك وظف عليهم أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وذبح الهدى . فاذا تحقق بأن البيت بيت الله فينبعث شوقه للحج ، وبعد الشوق يأتى العزم على الحج ، فيجب أن يجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى ، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة . فاذا عزم فيرى الغزالى وجوب قطع العلائق ويفسره بأنه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى . ويقول بوجوب أن يطلب الزاد من موضع حلال ، وليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر وأن زاده التقوى . وإذا أحضر الراحلة فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة ، وليتذكر عنده المركب الذى يركبه إلى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها . وإذا اشترى ثوبى الإحرام ليتزر بهما عند القرب من بيت الله عز وجل ، فليتذكر عنده

(١) بأن تمكنه صحته من ذلك ، وأن تكون الطريق آمنة ، وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة .

الكفن (١) ولفه فيه عند لقاء الله عز وجل . فاذا خرج من البلد ، فليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول . وإذا دخل البادية إلى الميقات وشاهد تلك العقبات ، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وإذا أحرم ولبى من الميقات ، فليعلم أن معناه اجابة نداء الله عز وجل ، فليرج أن يكون مقبولا وليخش أن يقال له لا لبيك ولا سعديك . فاذا دخل مكة ، فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل . فاذا وقع بصره على البيت فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه ، وليذكر انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين .
وبهذه المعاني يفسر الغزالي باقي الأعمال فيقول إن الحاج إذا طاف بالبيت فليعلم أنه صلاة ، وليعلم أنه بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله ، ولا يظنن أن المقصود طواف جسمه بالبيت بل طواف القلب بحضرة الربوبية ، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب . فاذا استلم فليعتقد عنده أنه مبايع لله عز وجل على طاعته ، فليصمم عزيمته على الوفاء ببيعته . فاذا تعلق بأستار الكعبة والتصق بالملتزم ، فلتكن نيته في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ، ولتكن نيته في التعلق بالستر الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان ، فاذا سعى بين الصفا والمروة في فناء البيت ، فليتذكر عنده تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة ، وليتمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات . فاذا اعتكف بعرفة ، فليذكر بما يرى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات

(١) وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن .

واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم ، عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم فى شفاعتهم وتحيرهم فى ذلك الصعود الواحد بين الرد والقبول ، وإذا تذكر ذلك فليلزم قلبه الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل فيحشر فى زمرة الفائزين المرحومين ، وليحقق رجاءه بالاجابة . وإذا زار المدينة ، فليتذكر أنها البلدة التى اختارها الله لنبيه . فاذا زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينبغى أن يقف بين يديه بسكينة ووجل ، وليمثل صورته الكريمة فى خياله وليحضر عظيم رتبته فى قلبه . ويجب أن يلزم قلبه الحزن والخوف والهم ، إذ لا يدرى أيقبل منه حجه أم يرد .

٢٠ — تلاوة القرآن : ومن العبادة تلاوة القرآن ، ويقول الغزالى إن ظاهر آداب التلاوة :

(١) أن يكون القارىء على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكىء ولا جالس على هيئة التكبر .

(٢) أولى ما يرجع إليه فى مقدار القراءة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه » وذلك لأن الزيادة عليه تمنع الترتيل ، والترتيل هو المستحب فى هيئة القرآن ، لأن المقصود من القراءة التفكير ، والترتيل معين عليه ، لأن الترتيل والتؤدة أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا فى القلب من الاستعجال ، ويجب أن يحسن القراءة ويرتلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم .

(٣) أن يتعوذ بالله فى مبتدأ قراءته ، وليقل عند فراغه صدق الله وبلغ رسوله ، ويستحب أن يبكى مع القراءة وأن يراعى حق الآيات ، فإذا مر مثلا بآية سجدة سجد .

(٤) لابد أن يجهر بالقراءة إلى حد يسمع نفسه ، لأن الجهر يوقظ

قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ، ولكن الإسرار أبعد عن الرياء .

٢١ — ويرى الغزالى أن أعمال الباطن فى التلاوة :

(١) فهم أصل الكلام وعظمته وعلوه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهامهم : وينبغى أن يحضر القارىء فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أنه « لا يمسه إلا المطهرون » وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا ، فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد ، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب .

(٢) حضور القلب وترك حديث النفس : والتدبير وهو وراء حضور القلب ، والتفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، فإذا ذكر الله خلق السموات والأرض وغيرها ، فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله « إذ الفعل يدل على الفاعل ، فتدل عظمته على عظمته ، فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه فى كل شىء ، إذ كل شىء فهو منه وإليه وبه وله ، فهو الكل على التحقيق ، ومن لا يراه فى كل ما يراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل ، وأن كل شىء هالك إلا وجهه »

(٣) التخلى عن موانع الفهم : (وهى أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، أو أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة ، أو أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع ، أو أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أنه لا معنى لكلمات

القرآن إلا ما تناوله النقل ، وأن ماوراء ذلك تفسير بالرأى ، مع أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم[1] .

(٤) التخصيص : وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن ، فاذا سمع أمراً أو نهياً ، قدر أنه المنهى والمأمور ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء ، علم أن السمر غير مقصود ، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه .

(٥) التأثر : وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ؛ فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ، « وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار ، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ » فيترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه ، ويبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضى والتزكية .

٢٢ — ذكر الله ودعاؤه : وقد قال تعالى « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين» وقال « ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى ، سيدخلون جهنم داخرين » . ويقول الغزالى إن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام (أو فى أكثر الأوقات) مع حضور القلب ، وهو المقدم على سائر العبادات ، بل به تشرف وهو غاية ثمرتها العملية ، وأول الذكر يوجب الأنس والحب وآخره يوجبه الأنس والحب ويصدر عنه ، وهو المطلوب . ويقول فى تدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة[2] « إنه إذا قال مثلا «الله ، الله »

---

(١) ويقول الغزالى إن الممنوع التفسير بالرأى الفاسد الموافق للهوى ، دون الاجتهاد الصحيح .

(٢) عند حديثه عن شروط الارادة ومقدمات المجاهدة .

أو « سبحان الله ، سبحان الله » أو ما يراه الشيخ من الكلمات ، فلايزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان ، وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر على اللسان ، وتبقى صورة اللفظ فى القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ماسواه » . ويفهم من قوله تعالى « اذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له ، وسبحه ليلا طويلا » وجوب إحياء الليل ، ولكن قيام الليل عسير على الخلق إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا ، فأما الظاهرة فيراها الغزالى أربعة أمور : أن لايكثر الأكل (فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام) وأن لا يتعب نفسه بالنهار فى الأعمال التى تعيابها الجوارح وتضعف بها الأعصاب ، (فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم) وأن لا يترك القيلولة بالنهار (فانها سنة للاستعانة على قيام الليل) ، وأن لا يحتقب الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة، لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير . وأما الميسرات الباطنة فيراها الغزالى أربعة أمور أيضاً : سلامة القلب عن الحقد وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا ، وخوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل ، وأن يعرف فضل قيام الليل حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه ، والحب لله وقوة الايمان بأن فى قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج به ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه . ويقول الغزالى إن الأوراد تختلف باختلاف الأحوال : فالعابد المتجرد للعبادة الذى لا شغل له غيرها أصلا ، ترتيب أوراده أن يستغرق أكثر أوقاته إما فى الصلاة أو فى القراءة أو فى التسبيحات . أما العالم فانه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والافادة ويحتاج إلى مدة لها لا محالة ، فيجب أن يعلم هو والمتعلم والوالى (مثل الامام والقاضى) أن الاشتغال بالعلم وحاجات المسلمين

وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الاخلاص ، أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل . أما المحترف الذى يحتاج إلى الكسب لعياله ، فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات ، بل ورده فى وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ، ولكن ينبغى أن لا ينسى ذكر الله تعالى فى صناعته ، بل يواظب على التسبيحات والأذكار وقراءة القرآن . وأما الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذى أصبح همه واحداً فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر فى شىء إلا ويرى الله تعالى فيه ، فكل ورده حضور القلب مع الله تعالى فى كل حال ، فلا تتميز عنده عبادة من عبادة .

٢٣ — ويقول الغزالى إن آداب الدعاء هى :

(١) أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة : (كأيام رمضان ويوم الجمعة ووقت السحر) ، وأن يغتنم الأحوال الشريفة (كخلف الصلوات وفى الصيام) .

(٢) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه ، ثم يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء ، ولا يرفع بصره إلى السماء ، وأن يخفض الصوت بين المخافتة والجهر .

(٣) أن لا يتكلف السجع فى الدعاء : فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال تضرع والتكلف لا يناسبه ، وأن يتضرع ويخشع ويرغب ويرهب ، وأن يجزم الدعاء ويوقن بالاجابة ، وأن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثاً ، وأن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ بالسؤال .

(٤) الأدب الباطن وهو الأصل فى الاجابة : التوبة ورد المظالم والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة . هذا ويجب الاستغفار اتباعا لقوله تعالى « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » والصلاة على النبى إذ قال تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

٢٤ — هل تجوز تلاوة أسماء الله الحسنى لغير العبادة ؟ هذا ويعمد رجال الصوفية الآن إلى أن يعلم الشيخ مريديه شيئا من خواص أسماء الله الحسنى ويأمره بأن يتلو الاسم الكريم كذا مرة ليحصل له الكشف ولتخدمه الروحانية وليحصل على كذا وكذا من خيرات الدنيا أو ليدفع عن نفسه كذا وكذا من شرورها ، ومن الأغراض التى يتلون الأسماء الكريمة لتحقيقها رزق الفهم والعلم وتيسير الرزق وتفريج الهم وقضاء الحوائج وإنارة القلب وتسخير الخلق أو الروحانية لهم ، والتوفيق للصواب والحق والأمن من الخوف والنجاة من القتال ومن الانس والجن ومن السفر ومن ضرر الخلق ومن الأعداء والحكام وإذلالهم لهم والطاعة والعبادة والطهارة من الحرام والتوبة والرفعة بين الخلق والنصر وإجابة الدعاء وتسهيل حفظ القرآن الشريف والتمتع برؤية ليلة القدر كما يتوهمها العوام . والاطلاع على قلوب العباد ، وغفران الذنب ، والهيبة بين الناس ، والنجاة من الضر ، والإياب من السفر والعودة من الغياب ، والقدرة على الصوم وتيسير العسر والحماية من الحسد وتعجيل الإجابة وعلو الدرجة فى الدنيا والآخرة ومحو الأعداء وإبعاد الشيطان ودوام السرور والحب وتيسير البيع والشراء والبلوغ لدرجة الولاية والأمن من الخوف فى الخلوة وكشف البصيرة لمشاهدة كنوز الأرض وللخلاص من الصفات الذميمة وهلاك الظالم والعدو والمغتاب والتأمين من الأعداء وولائهم والتأمين من يوم الفزع الأكبر ، والعثور على الضالة فى الطريق ، والتوفيق فى الزواج والبركة فى الرزق ونور القلب والوجه وقوة الطاعة وتسخير الخدام والنجاة من عذاب القبر وعذاب النار والوساوس وشرح الصدر وفتح البصيرة وتسهيل العسر وإطلاق سراح المسجون وإبطال السحر وإخصاب الأرض والشفاء من الأمراض كمرض الطحال والبرص والجذام والعلل بجميع أنواعها والدم مع الحمل وتجرية الدم والبرء من الدمامل ووجع البطن

والعينين والحمى الخافضة ووجع الرأس والأنخاذ وزوال العقم والزكام والدوخة والحمى المتلوثة . . . الخ .

ونرى من ذلك أن الأغراض التى يبغى الصوفيون تحقيقها من تلاوتهم إما أن تكون مادية أو معنوية أو خليطا منهما ، والمعنوية منها إما أن تكون دنيوية كالرغبة فى الرفعة بين الناس أو دينية كطلب الغفران أو علو الدرجة فى الآخرة ، وهى فى كل هذه الصور لا تخرج عن أن تكون دعاء ، وللدعاء آدابه ومن آدابه عدم الخروج عن الأخذ بالأسباب التى أمر الله سبحانه وتعالى بها ، فالأمراض مثلا قد بين الله سبحانه وتعالى طريق مداواتها إذا شاء باللجوء إلى الأدوية من الأعشاب وغيرها التى جعل الله تبارك وتعالى فيها خاصية الشفاء والتى ألهم سبحانه الأطباء منذ العصور الأولى إلى هذه الخاصية ، والتى كلما مرت الأيام زادهم علما بها وبنسبها وبالمفاضلة بين مختلف خواصها بمختلف التجارب ، وكذلك قدر الله أنه لانصر على الاعداء مالم تستعد لهم ولا نجاح فى امتحان مالم تذاكر ولاسعة فى الرزق مالم تعمل وتكد وتكدح ولاوصول إلى الله مالم نأتمر بأوامره ونجتنب نواهيه ، وهكذا باقى الأغراض التى ذكرنا أمثلة لها . ولذا أرى أنه يتنافى مع الأدب مع خالق الأسباب والمسببات ، أن نخرج على القوانين التى وضعها لخلقه ، وإلى أن نتلو من أسمائه الكريمة بعدد حدده الشيخ من عنده لم يأت به كتاب ولا سنة ولا رأى لصوفى كبير كالغزالى مثلا لغرض غير التلاوة مجردة عن أى غرض آخر ، لأن تلاوة أسماء الله الحسنى يجب أن تكون لقصد العبادة واللذة والمناجاة ، لالغرض آخر قد يتحقق وقد لايريد الله له الوقوع ، إما لعدم إحسان التوجه أو لعدم الأخذ بالأسباب التى أمر الله سبحانه بها !

الفصل الرابع

حب الله تعالى

٢٥ — أسباب الحب : لا نتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا مايعرفه . وكل مافى إدراكه من المدركات لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، ومعنى كونه محبوباً أن فى الطبع ميلا إليه ، فان تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقا . فالحب إذن ينقسم بحسب انقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع بسبب اللذات ميل إليها ، فلذة العين فى الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى اللين والنعومة . ويقول الغزالى بوجود حس سادس (به ندرك أعمال الصور الباطنة من خلال الخير) ويعبر عن هذا الحس إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بالبصيرة الباطنة ، و « البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لامحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الالهية التى تجل عن أن تدركها الحواس ، أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل لما فى إدراكه لذة ، فلا ينكر إذاً حب الله تعالى إلا من قعد به القصور فى درجة البهائم فلا يجاوز إدراك الحواس أصلا » .

ولكى يبين الغزالى تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى بين لنا أسباب المحبة عموما ثم ذكر أدلة وجودها بل قوة هذه الأدلة فى الله ، فيقول إن المحبوب الأول عند كل حى نفسه وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه

ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه [1] وكما أن دوام الوجود محبوب، فكمال الوجود أيضاً محبوب [2] فاذا المحبوب الأول للانسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه، والانسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها.

ومن عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله تعالى وإلى الله وبالله، « فاذا كان حب الانسان نفسه ضرورياً، فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانياً فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه، أيضاً ضرورى، ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ».

وثانى أسباب الحب هو الاحسان: فان الانسان عبد الاحسان، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وهذا إذا حقق يرجع إلى السبب الأول، فان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود. إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له (كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الأعضاء، والأستاذ الذى يكون سبب العلم)، ولذا لا يحب لذاته تحقيقاً بل لاحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً، ولو نقص نقص الحب، ولو زاد.. زاد. ولو عرف الانسان حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط، وأن الاحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز (فالله المحسن هو الذى اضطر المحسن إليك وسخره

---

(١) وهو لا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم فى الحياة، ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء.

(٢) لأن الناقص فاقد للكامل، والنقص عدم بالاضافة إلى القدر المفقود هو هلاك بالنسبة إليه.

وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل ، إما لغرض آجل وهو الثواب أو عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت ، ثم إن الله أنعم على العالمين إحسانا إليهم ولأجلهم ، لا لحظ وغرض يرجع إليه ، فانه يتعالى عن الأغراض) « فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الاحسان من غيره محال ، فهو المستحق لهذه المحبة وحده » . ثم إن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق بايجادهم وتكميلهم وترفيههم وتنعيمهم ، فالحب لهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض .

وثالث أسباب الحب أن يحب الشىء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه : وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق بدوامه (وذلك كحب الجمال ، فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن ادراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ، وقضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ، وكذلك استلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل) ، فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله جميل يحب الجمال » . والحسن الأغلب حسن الأبصار وأكثر التفات الناس إلى صور الأشخاص (من تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك) وهذا خطأ ظاهر « فان الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ، وإن كل شىء جماله وحسنه أن يحضر كماله اللائق به الممكن له » .

ومن أمثلة جمال الصور الباطنة جمال العلم والقدرة والكمال : والله هو أجل المعلومات ، فأحسن العلوم وأشرفها معرفته ، وكل ما يقاربه

ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به ، فان كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوبا وكان هو فى نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغى أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى ، إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية . وكذلك القدرة إذ غاية الانسان أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس فى بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشورا ولا ضراً ولا نفعاً ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات والأرض . فلا قدرة له على ذرة منها ، وما هو قادر عليه من نفسه فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ، فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك . ولا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق ، وأن كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص . بل كونه عاجزاً مخلوقا مسخراً هو عين العيب والنقص . فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب فهذا الوصف إن كان جمالا وكمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له . وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقاً بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصاناً (كالانسان بالاضافة إلى الحيوان) ، فالجميل المطلق هو الله . فاذاً ليس حب الانسان مقصوراً على من أحسن إليه ، بل المحسن فى نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال حسن فهو محبوب ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة ، كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة .

وخامس أسباب الحب (إذ رابعها هو لذة جمال المعانى والصور) هو المناسبة الخفية (تناسب الأرواح) بين المحب والمحبوب . والتعارف والتناسب أيضاً يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال بل إلى معان باطنة ، هى قرب العبد من ربه عز وجل

فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات ، على أن الروح أمر ربانى « قل الروح من أمر ربى » ، « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى » وقد خلق الله سبحانه آدم على صورته كما رمز النبى صلى الله عليه وسلم (حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيراً) ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها .

٢٦ — المستحق للمحبة هو الله وحده : ويقول الغزالى إنه لو اجتمعت أسباب الحب فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة . وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها . فإن كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات ، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه ، لأنها مجتمعة فى حقه تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره إلا آحادها ، ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له » .

٢٧ — لذة معرفة الله : ويقول إن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له ، ويقول إن كذلك فى القلب غريزة (تسمى النور الإلهى أو نور الإيمان واليقين ، يدرك القلب به المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة) مقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها (وتختلف باختلاف نوع العلم وشرفه ، وشرفه بقدر شرف المعلوم) . ويخرج الغزالى من ذلك بأن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، فإن اللذات مختلفة بالنوع (كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع) وبالضعف والقوة (كمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه فى الجمال) وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، وأن اللذات إما ظاهرة (كلذة الحواس) وإما باطنة (كلذة

الكرامة والعلم) ، والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلذة معرفة الله تعالى ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الباطنة الغالبة على الخلق .

٢٨ — ويقول الغزالى إن المدركات تنقسم إلى ما يدخل فى الخيال (كالصور المتخيلة) وإلى مالا يدخل فى الخيال (كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم ، كالإرادة) ، ومن رأى إنسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا ، ولمعرفة وإدراك المعلومات التى لا تتشكل فى الخيال درجتان إحداهما أولى والثانية استكمال لها ، وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والإيضاح مابين المتخيل والمرئى فيسمى الثانى أيضا بالاضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية فلا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، ومالم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهى إلى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة ، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، ومنها مالم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ، فاذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ،يتجلى له الحق سبحانه وتعالى تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى علمه كانكشاف تجلى المرآة بالاضافة إلى ما تخيله ، وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية (من غير تخيل

وتصور وتقدير شكل وصورة) ، ولا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا (والتجلى على درجات متفاوتة كالمعرفة) ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته . فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة « والذين آمنوا أشد حباً لله » .

٢٩ — وأصل حب الله لاينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، ولكن يرى الغزالى أن العبد يكتسب حب الله تعالى فى الدنيا واستيلاءه حتى ينتهى إلى العشق بسببين : قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب « وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ، وأن الواصلين للمعرفة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره ، وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل .

وأظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول ، يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا وحركاتنا وسكناتنا . ويرى الغزالى أنا نرى الأمر غير ظاهر لانبهار العقول ودهشتها عن إدراكه ، لأن ما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان : خفاؤه فى نفسه وغموضه وتناهى وضوحه ، إذ عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية فى غاية الاشراق والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول ، فصار ظهوره سبب خفائه ، ومن قويت بصيرته لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، فيعلم أن ليس فى الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهى تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود

للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها ، ومن هذا حاله فلا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى الفاعل ويذهل عن الفعل ؛ فكل العالم تصنيف الله ، فمن نظر إليه وعرفه وأحبه من حيث أنه فعل الله ، لم يكن ناظراً إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله .

٣٠ — معنى الشوق إلى الله : وكل محبوب يشتاق إليه فى غيبته لا محالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر ، والموجود لا يطلب ، ولكن الشوق لا يتصور إلا إلى شىء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه (وأما مالا يدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه ، لا يتصور أن يشتاق إليه) وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية ، فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما النظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق . ويقول الغزالى : إن الوجهين جميعاً (استكمال الوضوح ونهاية المعرفة) متصوران فى حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإنما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان فى غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق ، ويكون مشوبا بشوائب التخيلات وينضاف إليها شواغل الدنيا ، وكمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلى ولا يكون ذلك إلا فى الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق (وذلك ينتهى فى الدار الآخرة باللقاء والمشاهدة) ثم إن الأمور الإلهية لا نهاية لها فتبقى أمور لا نهاية لها غامضة ، فيتشوق العارف إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة (وهذا الشوق لا نهاية له فى الدنيا ولا فى الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ، ماهو معلوم لله تعالى ، وهو محال لأن ذلك لا نهاية له) .

٣١ — معنى محبة الله للعبد: وقال الله تعالى «يحبهم ويحبونه»، وقد اشترط للمحبة غفران الذنب فقال: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»، ويقول الغزالى إن الوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع فكان استعمال لفظ الحب فى حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل، والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم، وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة فإن ما يوافقها تستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن فى حق الإلهية، وليس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله، فهو إذاً لا يحب إلا نفسه، وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلب العبد حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به فى الأزل، وقرب كل واحد من الله بقدر كماله، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا لحد محدود، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال.

٣٢ — علامات محبة العبد لله: ويقول الغزالى إن ثمار المحبة تظهر فى القلب واللسان والجوارح، وهى كثيرة، منها: حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام، وأن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه، وأن لا يكون له تنعم بغيره، وأن يجتنب اتباع الهوى (والمعصية لا تخرجه عن الحب ولكن تخرجه عن كماله)، وأن لا يفتر لسانه عن ذكر الله ولا يخلو عنه قلبه، وذكر ما يتعلق به من كلام ورسل وما ينسب إليه، وحب جميع الخلق لأنهم خلقه، وأن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، وأن لا يطمئن إلا بالله «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، وأن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر

رجوعه عند الغفلات بالتوبة ، وأن يستقبل كل شيء بالرضى ويذكر قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ؛ وأن يتنعم بالطاعة (ولا يستثقلها) ويسقط عنه تعبها ، وأن يكتم الحب ويجتنب الدعوى ويتوق من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره [1] وأن يأنس بالله ويرضى بكل حكم نازل .

٣٣ — معنى الأنس بالله : ويقول الغزالى إن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة ، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه فى وقته « فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال ، انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالاضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظ فيسمى أنسا ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد ، تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا » .

ويقول الغزالى إن علامة الأنس الخاصة ، ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم فإن خالط فهو كمنفرد فى جماعة وحاضر فى سفر وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر .

٣٤ — الرضى بقضاء الله : وقد قال تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، ويقول الغزالى إن الرضى ثمرة من ثمار المحبة ، والحب يورث الرضى بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين :

---

(١) لذا يقول الغزالى إنه يذم الشطح بدعاوى طويلة عريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة (كدعوى الاتحاد) والكلمات ذات الظواهر الرائقة الغير مفهومة لقائلها بل صادرة عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله ، أو مفهومة له ولكنه غير قادر على تفهيمها .

(١) أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم به لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه ، هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه ، وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف ، تصور فى الألم العظيم بالحب العظيم ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال .

(٢) أن يحس ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له بعقله وإن كان كارهاً بطبعه (فمن يسافر فى طلب الربح يرضى بمشقة السفر) ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه ، فما ظنك بقلوب وقعت بين جمال الله وجلاله ؟!

٣٥ — ويقول الغزالى إن الدعاء غير مناقض للرضى ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضى ، وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعى فى إزالتها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يناقضه أيضاً ، لأن الله تعبدنا بهما . وقد التبس هذا على قوم حتى رأوا السكوت على المنكرات مقاما من مقامات الرضى وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض ، بل الرضى والكراهة يتضادان إذا تواردا على شىء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد فى شىء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه ، فكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث أنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضى بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث أنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ويقول الغزالى إن هذا كله مستمد من سر القدر الذى لا رخصة فى إفشائه ، وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى ، فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير

افتراق فى الرضى والكراهة ، فهو أيضا مقصر . وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضى بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف . ويقول الغزالى إن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها ، لا يقدح فى الرضى إذ أنه ليس فرارا من القضاء ، بل القضاء الفرار مما لابد من الفرار منه . فمن الأفضل رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمته ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله ؟ ! . . صاحب الرضى أفضلهم لأنه أقلهم فضولا !

الفصل الخامس

مراقبة الله

٣٦ — المحاسبة والمراقبة : قال تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » ، وقال « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، ويقول الغزالى إن مطلب العقل وربحه تزكية النفس « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، وهو يحتاج إلى مشارطتها أولا فيرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها . والمحاسبة تكون تارة بعد العمل وتارة قبله للتحذير ، ومعناه وزن الأمور أولا وتقديرها والنظر فيها بتدبر ثم الاقدام عليها فمباشرتها ، ولا يبقى بعد ذلك إلا المراقبة للنفس عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت « إن الله كان عليكم رقيبا » .

٣٧ — ويقول الغزالى إن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب ، أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت . والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبة الصديقين هى مراقبة التعظيم والإجلال وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا ، وهذه

مراقبة مقصورة على القلب ، أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هما واحداً ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا عما هو فيه . أما الورعون فهم قوم غلب يقين اطلاع الله على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة : وقد غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعاً عليهم (على ظاهرهم وباطنهم) فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة ، ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته (بأن يسأل نفسه لم ؟ وكيف ؟ ولمن ؟) عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى نفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به [١] .

ويقول الغزالى إن العبد لا يخلو إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح ؛ فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ؛ وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر ؛ وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها والصبر على البلية .

٣٨ — ويقول الغزالى إن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق ، فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، فيحاسبها على

(١) فإن الخطوة الأولى فى الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، فالهم ، فجزم القصد ، فالفعل ، فالبوار والمقت !

الفرائض أولا ، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، وينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول النهار ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ ، فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ، ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً فيوماً وساعة فساعة فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة .

ويقول الغزالى إنه مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى ، فلا ينبغى أن يهملها فإنه إن أهملها عسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغى أن يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته .

٣٩ — النية : ويقول إن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل ، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة ، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلابد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق ولابد أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل (فمعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما فى الحال أو فى المآل) وإذا انبعثت الإرادة ، انتهضت القدرة

لتحريك الأعضاء ، والنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوى ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الاعضاء هو العمل ، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد (خالص عن مشاركة غيره) وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة (وهذا مرافقة للبواعث) وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع (وهذا مشاركة فى الباعث) وقد يكون أحدهما كافياً لو لا الآخر ، لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً (وهذا معاونة للباعث) . فالعمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ؛ ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لا حكم لها فى نفسها وإنما الحكم للمتبوع .

٤٠ — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله » ، ويقول الغزالى إن معناه إن نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختياراً فى النية وفى العمل ، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما (لأن أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ؛ والنية ميل القلب إلى الخير وإرادته له ، وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيراً بالاضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود)

ويقول الغزالى إن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك ، فهى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات :

(١) المعاصى : وهى لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية (كمن يبنى مسجداً بمال حرام) إذ النية لا تؤثر

فى إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية ، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ؟ ! هيهات ! ولكن للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضافت إليها قصود خبيثة ، تضاعف وزرها وعظم وبالها .

(٢) الطاعات : وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها ، أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير (فإن نوى الرياء صارت معصية) ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها .

(٣) المباحات : وما من شىء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات ، فالتطيب مثلا مباح ولكن هل يقصد به التنعم بلذات الدنيا (فلا يعصى به ولكن يسأل عنه) أو يقصد به رياء الخلق فيذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن (وكل هذا يجعل التطيب معصية) ؛ أما إذا كان ينوى به اتباع السنة يوم الجمعة وتعظيم المسجد فلا يدخله إلا طيب الرائحة ويقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا بروائحه ومعالجة دماغه لتزيد به فطنته (فهذه نيات حسنة) .

٤١ — ويقول الغزالى : « إن النية ليست حديث نفس أو حديث لسان أو فكر أو انتقالا من خاطر إلى خاطر ، بل هى انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا ، والميل إذا لم يكن ، لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة ، إذ لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشىء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض

الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقـد الانسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك ممـا لا يقدر على اعتقاده فى كل حين وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن فى كل وقت ، والدواعى والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال . والنية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وهى روح العمل ، والعمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لاسبب قرب ، وهى ليست قول القائل بلسانه نويت ، بل هو انبعاث القلب » .

ونيات الناس فى الطاعات أقسام ، إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف (اتقاء النار) ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء (الرغبة فى الجنة) ، وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لاتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله ، وثواب الناس بقدر نياتهم . ومن حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات (وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار فى الظلم ، وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل) .

٤٢ — شوب الرياء : ويقول الغزالى إن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصاً ، والإخلاص يضاد الاشراك فمن ليس مخلصاً فهو مشرك : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » . والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب ، وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات ، ومهما كان الباعث واحداً على التجرد سمى الفعـل الصادر عنه إخلاصاً بالاضافة إلى المنوى ، ولـكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، فمن انبعث لقصد التقرب ولـكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، فقد

خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك (الخفى).

والباعث النفسى[1] إما أن يكون مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف والإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى.

واظهر مشوشات الإخلاص الرياء، والعمل إن لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس، كان مشوبا (ويدل ظاهر الأخبار على أنه لا ثواب له) فإذا كان لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب، أما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب.

ويرى الغزالى ان ينظر إلى قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب الأقل من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم تمتزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى؛ فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير[2] بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شىء من عقوبة القصد الفاسد.

---

(١) حظوظ دنيوية وشهوات تستريح إليها النفس ويميل إليها القلب.

(٢) ويقول الغزالى « كما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثيره فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله أو إبعاده.

ويقول الغزالى تفسيراً لهذا « إن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها فإذا اجتمعت الصفتان فى القلب فيما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضاً تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما » وفى الحديث « اتبع السيئة الحسنة تمحها » فاذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فاذا اجتمعا جميعاً فلابد وأن يتدافعا بالضرورة . ومع هذا فيقول الغزالى إنه لا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، إذ المقصود ان لا يفوت الاخلاص ، ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعاً .

٤٣ — الاخلاص والصدق : وقال الله تعالى « رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه » ويقول الغزالى إن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان :

(١) صدق فى القول : وهذا هو صدق اللسان ولا يكون إلا فى الأخبار أو فيما يتضمن الأخبار وينبه عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضى، أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . فمن حفظ لسانه عن الأخبار عن الأشياء على خلاف ماهى عليه فهو صادق ، ولكن لهذا الصدق كمالان ، أحدهما : الاحتراز عن المعاريض لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشىء على خلاف ما هو عليه فى نفسه ، إلا ان ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال كحفظ دمه وماله وعرضه ودم أخيه وسره ووده وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الصلح بين اثنين وفى الحذر عن الظلمة وفى مصالح الحرب فى قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر إلى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق ويقتضيه

الدين ، فاذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ماهو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه . والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيـه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقاً وصديقاً كيفما كان لفظـه ، ثم التعريض فيه أولى . والـكمال الثانى أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه كقوله « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب ، وكقوله « إياك نعبد » .

(٢) صدق فى النية والإرادة : ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس ، بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً

(٣) صدق العزم : فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل (فيقول مثلا فى نفسه إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره) ، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة . فالصادق هنا هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسـخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات .

(٤) صدق فى الوفاء بالعزم : ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف ، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمـكن وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه .

(٥) صدق فى تحقيق العمل : وهو صدق فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك

الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر (بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره) .

(٦) صدق فى تحقيق مقامات الدين كلها : وهو أعلى الدرجات وأعزها كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والحب وسائر هذه الأمور (فإن الصدق فى تمام حقيقتها لا فى ظهورها فحسب ، وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، والصديق من كان صادقاً فى الجميع مع اختلاف فى الدرجات) .

٤٤ — مراقبة الله فى الدنيا : ويقول الغزالى فى ذم الدنيا إن كل ما ليس لله فهو من الدنيا (صورة ومعنى) وما هو لله فذلك ليس من الدنيا ، والأشياء ثلاثة أقسام :

(١) المعاصى والمحظورات وأنواع التنعمات فى المباحات : وهى الدنيا المحضة المذمومة (ولا يتصور أن يكون ذلك لله) .

(٢) ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو الفكر والذكر والكف عن الشهوات : (فإذا جرى ترك الشهوة مثلا سراً ولم يكن عليه باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهو لله ، وإن كان الغرض منه حفظ المال أو الحمية لصحة البدن أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى) .

(٣) ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه .

فاذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة إليه لأمر الآخرة ، ويعبر عنه بالهوى ، ويقول الغزالى « إن الخير أن لا يترك الإنسان الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية ، اما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شىء من الدنيا

ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ماخلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده » .

٤٥ — وقال الله تعالى «يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » ، ويقول الغزالى إن المال مثل حية فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه وغوائله سمومه ، وأما فوائده الدينية فهى أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة (كالاستعانة على الجهاد) أو فى الاستعانة على عبادة (كالمطعم) ، وما يصرفه إلى الناس من صدقة ومروءة ووقاية عرض وأجرة استخدام ، ومالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام (كبناء المساجد ودور المرضى) ، سوى مايتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والأعوان والكرامة فى القلوب .

وأما آفات المال فدينية ودنيوية ، أما الدينية :

(١) فإن تجر إلى المعاصى وارتكاب الفجور (فإن الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية) ومن العصمة أن لا يجد .

(٢) أنه يجر إلى التنعم فى المباحات ، وأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا لايصبر عنه ويجر البعض منه إلى البعض ، فاذا اشتد أنسه به ربما لايقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه .

(٣) يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ماشغل العبد عن الله فهو خسران ، فإن أصل العبادات وسرها ذكر الله والتفكر فى جلاله وذلك يستدعى قلبا فارغا (وصاحب الضيعة مثلا يمسى ويصبح متفكراً فى خصومة الفلاح ومحاسبته) . فان كان الإنسان فقيراً فينبغى أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى مافى أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من

المطعم والملبس والمسكن ، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ، فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وجره التدنس بذل الحرص والطمع إلى ارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات . ويقول الغزالى إن علاج هذا العمل بالاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق ، وإذا تيسر له فى الحال مايكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه ، وأن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل وأن يخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بالأنبياء أعز أصناف الخلق عند الله ، وإن كان المال موجوداً ، فينبغى أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل .

٤٦ — حقيقة الفقر : ويقول الغزالى إن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد مالاحاجة إليه فلا يسمى فقراً ، وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيراً ، وكل موجود سوى الله تعالى فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال ، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده . فليس فى الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمد وجودهم بالدوام « والله الغنى وأنتم الفقراء » ، وفقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لاينحصر لأن حاجاته لاحصر لها ، ومن جملة حاجاته مايتوصل إليه بالمال ، وكل فاقد للمال فإنما نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذى فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه فى حقه ، ثم يتصور أن تكون له ستة أحوال :

(١) أن يستوى عنده وجود المال وفقده (ويسمى استغناء) .

(٢) أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله (ويسمى زهدا) .

(٣) أن يكون بحيث لايرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، ويزهد فيه لو أتاه (ويسمى رضى) .

(٤) أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه (ويسمى قناعة) .

(٥) أن يكون تركه الطلب لعجزه (ويسمى حرصاً) .

(٦) أن يكون والعياذ بالله مافقده من المال مضطرا إليه (ويسمى اضطرارا) والغزالى يريد من ذكر تلك الحالات أن يمهد لقوله إن الزهد فى الدنيا إن أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة فى عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى : بل الكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء (وأنت محتاج إلى كل منهما) ، وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ولا قلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة ، فهكذا ينبغى أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد فى الحاجة وإنما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذى دبر به العالم ، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا ، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء .

ويقول الغزالى إن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك وإن الغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص ، ويقول إن السؤال حرام فى الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة (لمأكل أو ملبس أو مسكن) فإن كان عنها بد فهو حرام . لأنه إظهار للشكوى من الله تعالى ، وفيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى ، وإنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالبا لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه (وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم مابك من الحاجة لابتدأك دون السؤال بأن تكون مشرفا على الهلاك ولم يبق لك سبيل إلى الخلاص ولم تجد من يعطيك من غير كراهة وأذى — فأما فى تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل ، فلا) .

٤٧ — حقيقة الصبر : ويقول الغزالى إن الصبر عبارة عن ثبات باعث

الدين فى مقابلة باعث الشهوة (والهوى والكسل) ؛ فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، ويقول : إن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين :

(١) العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر .

(٢) أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة (فيشكر) أو يضره فيهما (فيصبر) والصبر ضربان ضرب بدنى (كتحمل المشاق بالبدن) وهو إما بالفعل (كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها) وإما بالاحتمال (كالصبر على المرض العظيم والجراحات الهائلة) وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو صبر النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى (ويسمى عفة وضبطاً للنفس ، وشجاعة ، وحلماً ، وسعة صدر ، وكتماناً للسر وزهدا ، وقناعة — بحسب نوع المصبور عليه) .

ويقسم الغزالى الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف تبعاً لأحوال باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى ، إلى ثلاثة :

(١) صبر الصديقين المقربين : وهو أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر .

(٢) صبر الغافلين : أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة .

(٣) صبر المجاهدين : وهو أن تكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهو إما أن يغلب جميع الشهوات أولا يغلب شيئاً منها أو يغلب بعضها دون بعض .

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا ،

وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر ، وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر وأورث ذلك مقام الرضى .

وينقسم الصبر باعتبار حكمه إلى فرض (بالصبر عن المحظورات) ونفل (بالصبر عن المكاره) ومحرم (بالصبر على الأذى المحظور) ومكروه (بالصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع) .

ويقول الغزالى إن جميع ما يلقى العبد فى هذه الحياة لا يخلو من نوعين ما يوافق هواه (وهو الصحة والمال والجاه وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا) ومالا يوافقه (وهو ما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصى ومالا يرتبط باختياره كالمصائب ، أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بانتقام) وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما ، ومعنى الصبر على العافية أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه ، وهذا الصبر متصل بالشكر .

٤٨ — شكر الله : والشكر نصف الإيمان ، ويقول الغزالى إن الشكر لله لا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته (وأنه الشاكر والمشكور إذ الكل مصدره إليه وإليه مرجعه ، وليس فى الوجود غيره إذ الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجوداً ، فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد) ، أى أنك لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك ، ثم إن

الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، هو أيضاً فى نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ، ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام (فيبعد عن معنى الشكر إذا كان النظر مقصوراً على الفرح بالنعمة من حيث أنها لذيذة وموافقة لغرضه ، ويدخل فى معنى الشكر الفرح بالمنعم لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل) . ويقول الغزالى إن العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم يتعلق بالقلب (بقصد الخير وإضماره لكافة الخلق) وباللسان (بإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه) وبالجوارح (باستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصية) .

ويقول الله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » ومعنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ، ولتميز مايحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار ، الثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار بإدراك حكمة الله تعالى (الجلية أو الخفية) فى كل موجود خلقه ، إذ ما خلق شيئاً فى العالم إلا وفيه حكمة ، فكل من استعمل شيئاً فى غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله وعدل عن العدل ، (فمثلا الدراهم والدنانير خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدى ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، وعلامة معرفة المقادير مقومة للمراتب ، ولحكمة أخرى وهى التوسل بهما إلى سائر الأشياء فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود به فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فإذاً من كنزهما فقد ظلمها وأبطل الحكمة فيهما « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » ، وكل من اتخذ منهما آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة لأن الخزف والحديد

والرصاص والنحاس تنوب منابهما فى حفظ المائعات عن أن تتبدد ، ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود ، وكل من عامل معاملة الربا فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما إذ لا غرض فى عينهما ، (فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة) .

ويقول الغزالى إن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الأخروية وكل سبب يوصل إليها ويعين إليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة ، والنعم إما نافعة فى الدنيا والآخرة كحسن الخلق ، أو نافعة فى الحال ضارة فى المآل كالتلذذ باتباع الشهوات ، أو مؤلمة فى الحال نافعة فى المآل كقمع الشهوات ، وتنقسم الأسباب الدنيوية إلى ما نفعه أكثر من ضرره كقدر الكفاية من المال والجاه ، وإلى ما ضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما يكافىء ضره نفعه ، وهذه أمور تختلف باختلاف الأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال وإن كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فيكون نعمة فى حقه ، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربه طالباً للزيادة فيكون بلاء فى حقه . وتنقسم الخيرات إلى ما يؤثر لذاته كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وما يقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير لقضاء الحاجة ، وما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة . وتنقسم الخيرات باعتبار آخر إلى ما تدرك راحته فى الحال وهو اللذيذ ، وما يفيد فى المآل وهو النافع وما يستحسن فى سائر الأحوال وهو الجميل ، ولهذا التقسيم ضربان مطلق اجتمعت فيه الأوصاف الثلاثة كالعلم ، ومقيد جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فالنافع قد يكون مؤلماً وقد يكون قبيحاً وقد يكون نافعاً من وجه وضاراً من وجه وقد يكون ضرورياً وقد يكون غير ضرورى .

وتنقسم اللذات إلى عقلية اختص بها كالعلم ، وبدنية إما مشتركة مع بعض الحيوانات كلذة الاستيلاء والغلبة ، أو مشتركة مع جميعها كلذة البطن والفرج . وقسم الغزالى النعم تقسيما حاويا لجامعها إلى ماهى غاية مطلوبة لذاتها وإلى ماهى مطلوبة لأجل الغاية التى هى سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور ، بقاء لافناء له وسرور لاغم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده ، وهى النعمة الحقيقية . وقسم الوسائل إلى الأقرب الأخص كفضائل البدن من صحة وقوة وجمال وطول عمر ، وإلى مايليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل ، وإلى مايجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس ، كتوفيق الله والرشد والتسديد والتأييد .

ويقول الغزالى إنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة عن معرفة النعم ؛ ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، أما الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون مايعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون عليها لأنها نعمة عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، فإن ابتلى واحد منهم ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ؛ وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال ، والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تشكر فى بعضها ، فصار الناس لايشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى ، والعلاج أن ينظر الإنسان إلى من

دونه ، وأن يعرف أن النعمة (ظاهرة أو باطنة) إذا لم تشكر زالت ولم تعد .

٤٩ — ويقول الغزالى إنه يرجع الصبر فى الدنيا إلى ماليس ببلاء مطلقاً بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ، والشىء الواحد قد يغتم به من وجه (فيصبر عليه) ويفرح به من وجه آخر (فيشكر عليه) ، وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها :

(١) أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها فيشكر إذ لم يكن أعظم منها فى الدنيا .

(٢) أنه كان يمكن أن تكون مصيبة فى دينه (بكفر أو معصية أشد ، ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله على ذلك ؟ !) .

(٣) ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدمْ فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا .

(٤) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب وكان لابد من وصولها إليه ، وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة .

(٥) أن ثوابها أكثر ، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين أحدهما الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبى ، فكذلك المال والأهل والأعضاء حتى العين التى هى أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان فى بعض

الأحوال ، بل العقل الذى هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة الدينيـة ويشكره عليه . والوجه الثانى أن مواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها ، وأما التألم فضرورى (والدواء النافع مؤلم) .

٥٠ — مراقبة الله فى اللسان : وقد ذكر الغزالى فى آفات اللسان وجوب أن يتجنب الإنسان الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله (مثاله ماقاله حذيفة إن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت وليقل ما شاء الله ثم شئت » ، وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام) ، وكذلك يجب أن يتجنب العوام السؤال عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة (لأن شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث) ، وكذلك يجب على الإنسان أن يتجنب الكلام فيما لا يعنيه وفضول الكلام (الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة) والخوض فى الباطل (وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق ، بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للوصول إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها) والتقعر فى الكلام بالتشدق المقوت والتنطع وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات ، إذ مقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، والغناء والشعر وإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره . وكذلك يجب مراقبة الله فى آفات اللسان الأخرى .

٥١ — مراقبة الله فى الأكل والشرب : ونحن قوم نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل ، وإذا أكلنا لم نشبع ، فلا ينبغى أن يكون هم الإنسان الأكل والشرب بل يجب أن يجاهد نفسه بالجوع والعطش تبعاً للحديث الشريف ، ويقول الغزالى إنه يجب أن لا يأكل إلا حلالا فى نفسه طيباً فى جهة مكسبه « كلوا من الطيبات » موافقاً للسنة والورع ، لم يكتسب بسبب مكروه فى الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة فى دين ، وأن ينوى بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل (ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل) وأن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد فى التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم . وفى هذا وفضيلة الأكل للعيش أو كما يسميها الغزالى فضيلة الجوع فهم صادق لمعنى الحياة الإنسانية الحقة وتجريد لها من خسة شهوة البطن المادية المشاركة لها البهائم فيها ، إذ يرى الغزالى أن فى مجاهدة الجوع والعطش صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة (لأن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار فى الدماغ فيثقل القلب عن الجريان فى الأفكار وسرعة الادراك) ، وبالجوع يرق القلب ويصفو ويزول البطر « فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع ، فعنده تسكن لربها وتقف على عجزها وذلها إذ ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنها » ، وبه لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء ، وبه كسر شهوات المعاصى كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء « فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة ، وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه والشقاوة فى أن تملكه نفسه ، وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام » ، وبه يندفع النوم ويدوم السهر (لأن من شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه) « وفى كثرة النوم ضياع العمر

وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب » ، وبه تتيسر المواظبة على العبادة (لأن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وشراء الطعام وطبخه وغسل اليد والخلال وكثرة الترداد إلى بيت الماء لكثرة شربه) ، ويستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض « فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة والعروق ، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات » ، وبالجوع وقلة الأكل تخف المؤنة « فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذى تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له وآخذاً بمخنقه فى كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل ، وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس » ، وبقلة الأكل يتمكن من الإيثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون فى يوم القيامة فى ظل صدقته .

٥٢ — ويجعل الغزالى للأكل صفة اجتماعية منظمة فيرى أن من آدابه أن يجتهد الإنسان فى تكثير الأيدى على الطعام ولو من أهله وولده . ويدل على احترام الغزالى للأكل ورفعه له عن خسة المادية ذكره أن من الآداب التى تتقدم على الأكل « غسل اليد لأن اليد لا تخلو عن لوث فى تعاطى الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة ، ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة » وذكره أن من آداب حالة الأكل أن يبدأ بيسم الله فى أوله ويحمد الله فى آخره ويأكل باليمنى (احتراما له) ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها ومالم يبتلعها لم يمد اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة فى الأكل ، ولا ينفخ فى الطعام الحار بل يصبر إلى أن يسهل أكله ، وان لا يكثر الشرب فى أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه (تنظيما له واتباعا للقواعد الصحية) وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة

فإن له أن يجيل يده فيها ، ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق ، ولا يجمع فى كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها ، وكل ماله عجم وثفل وما استرذله من الطعام ، وأن لا يأكل من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز (احتراما له ولكيلا يتأذى من يأكل معه) وأن لا يذم مأكولا فإن أعجبه أكله وإلا تركه ، ولا يمسح يده بالخبز (احتراما للنعمة)[1] ويراعى الغزالى هذه المعانى فى الشرب فيقول إن أدبه أن يأخذ الكوز (القدح) بيمينه ويقول بسم الله ويشربه مصا لاعبا ، ولا يشرب قائما ولا مضطجعا ، ويراعى أسفل (القدح) حتى لا يقطر عليه وينظر فيه قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس فيه بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية . وكذلك يقول إنه يستحب بعد الطعام أن يمسك قبل الشبع ، ويتخلل ولا يبتلع ما يخرج من بين أسنانه بالخلال بل يرميه ، وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام منة منه ، ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولا .

٥٣ — مراقبة الله فى النكاح : ويقول الغزالى إن للنكاح فوائد وآفات على العبد أن يوازن بينهما ويرجح الأصلح له منهما ، فآفاته ثلاث : العجز عن طلب الحلال (لأن المتزوج فى الأكثر يتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه) ، والقصور عن القيام بحق الزوجة ، وأن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره وطلب التفاخر والتكاثر بهم وأما فوائده فخمسة :

(١) الولد : وهو الأصل وله وضع النكاح ، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة[1] .

---

(١) حتى أنه يغالى فيقول لا يقطع بالسكين ولا يقطع اللحم أيضا ، ونرى أن هذا لا يقلل من احترام النعمة ، بل يمكن القول به وضعه لاحترام الأكل وتنظيمه .

(٢) ويقول الغزالى فيما يتعلق بالولد وجوب أن تكون المرأة ولودا (بأن يراعى صحتها =

(٢) التحصن عن الشيطان وكسر التوقان وغض البصر وحفظ الفرج :
ويقول الغزالى إن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لا يشغل قلبه ونفسه بالتزويج فإن ذلك يستجره إلى الأنس بالزوجة ، ومن أنس بغير الله تعالى شغل عنه ، فشرط المريد العزوبة في الابتداء إلى أن يقوى فى المعرفة ، هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح أولى له لتسكن الشهوة وكذلك إذا لم يحفظ عينه إذ زنا العين من كبار الصغائر وهو يؤدى على القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج . وفى الحديث « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والفم يزنى وزناه القبلة ، والقلب يهم أو يتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » ، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به ، فإن الشر فى الصبيان أكثر فإنه لو مال إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح ، والنظر إلى وجه الصبى بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر إليه ، ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة[1] .

(٣) ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة وإراحة القلب وتقوية له على العبادة : ويقول الغزالى إنه يحسن أن تكون المرأة حسنة الخلق صالحة ذات دين ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها

= وشبابها) وأن تكون نسيبة (أى تكون من أهل بيت الدين والصلاح فانها ستربى بناتها وبنيها ، وأن لا تكون من القرابة القريبة فان ذلك يقلل الشهوة فيخلق الولد ضاويا أى نحيفا)

(١) ويقول الغزالى عند الكلام عن الخصال المطيبة للعيش التى لابد من مراعاتها فى المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده : أن تكون خفيفة المهر (ويكره السؤال عن مالها من جهة الرجل) وأن تكون حسنة الوجه إذ به يحصل التحصن والألف والمودة ، والطبع لا يكتفى بالدميمة غالبا ، والغالب : أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان .

وفرجها أزرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه (وفى الحديث « لا تنكح المرأة لجمالها ، فلعل جمالها يرديها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها . وانكح المرأة لدينها » وهذا ليس زجراً عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد فى الدين ، فإن الجمال وحده فى غالب الأمر يرغب فى النكاح ويهون أمر الدين) وأن تكون بكراً ، وقد قال عليه السلام لجابر وقد نكح ثيباً : هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك[1] .

(٤) تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب المعيشة .

(٥) مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده .

٥٤ — مراقبة الله فى رياضة الصبيان : ويقول الغزالى « إن الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه ، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا ، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغى أن يراقبه من أول

---

(١) ويقول : إنه يجب على الولى أيضا أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوجها إلا برضاها ولا يزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لا يكافئها فى نسبها ، وينبغى أن يزوجها كما قال الحسن ممن يتق الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها !

الأمر فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، ومهما رأى فيه مخايل التميز فينبغى أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، ثم يشغل فى المكتب ، ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، فإن عاد ثانياً فينبغى أن يعاقب سراً ويعظم الأمر فيه ، وينبغى ان يمنع عن كل ما يعمله فى خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه أو بشىء من مطاعمه وملابسه بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بداله ، حشمة إن كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ، وإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها ، وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل » . أى أن الغزالى يرى أن الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين ، فمراقبة الله فيه الميل به للخير ، فلقد علم بن سوار بذلك ابن أخته سهل بن عبد الله التسترى كيف يذكر خالقه ، إذ قال له اذكره بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك « الله معى ، الله ناظر إلىّ ، الله شاهدى » ثم زاد إلى سبع مرات ثم إلى إحدى عشرة مرة ، فوقعت فى قلبه حلاوته ، فانتهز خاله شعوره بهذه اللذة وقال له « من كان الله معه ، وناظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟ ! . . إياك والمعصية ! ! . . »

٥٥ — مراقبة الله فى المعاملات المادية مع الناس : صلة المعاملات المادية لا يخرج إنسان عنها إذ لابد له من نوع معاملة فى سعيه لكسب عيشه ، ولما كان الله تعالى قد قال فى كتابه العزيز « كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » احتجنا لمعرفة مداخل الحلال والحرام ، ويبين لنا ذلك الغزالى فى قوله إن المال إنما يحرم لمعنى فى عينه (كالخمر والخنزير ومايضر كالسم والقاذورات) أو لخلل فى جهة اكتسابه ، فما يؤخذ من غير مالك (كالاصطياد) فحلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذى حرمة من الآدميين ، وأما المأخوذ قهراً (كالغنيمة فى الحرب) فحلال إذا أخرج منها الخمس وقسم بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد ، وأما ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فحلال إذا تم سبب الاستحقاق واقتصر على القدر المستحق واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق ، وأما ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، فحلال إذا روعى شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين (الإيجاب والقبول مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة) وأما ما يؤخذ عن رضى من غير عوض ، فحلال إذا روعى فيه شروط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره ، وأما ما يحصل بغير اختيار كالميراث فحلال إذا كان المورث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال .

٥٦ — درجات الحلال والحرام : ويقول الغزالى إن الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب وأصفى من بعض ، ولذلك قسم الورع عن الحرام على أربع درجات :

(١) ورع العدل : وهو ورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء ، وهو الذى يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه .

(٢) ورع الصالحين : وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ولكن المفتى به يرخص فى التناول بناء على الظاهر .

(٣) ورع المتقين : وهو ورع عما لا يحرمه الفتوى ، ولا شبهة فى حله ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم (وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس ، لأن أكثر المباحات داعية إلى المحظورات حتى استكثار الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فانه يحرك الشهوة) .

(٤) ورع الصديقين : وهو الامتناع عما لا بأس به أصلا ولا يخاف منه أن يؤدى إلى ما به بأس ، ولكن يتناول لغير الله على غير نية التقوى به على عبادة الله أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية .

ويقول الغزالى إن الحديث الشريف « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام ، كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » نص فى إثبات الأقسام الثلاثة : حلال مطلق (خلت عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه ، وانحل عن أسبابه ، ما تطرق إليه تحريم أو كراهية) وحرام محض (وهو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها) وشبهة (وهو ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين) .

٥٧ — مراتب الشبهات ومثاراتها : ويقول الغزالى إن مثارات الشبهة خمسة :

(١) الشك فى السبب المحلل والمحرم : فان تعادل الاحتمالان ، كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة ، كان الحكم للغالب ، وينقسم هذا إلى أربعة أقسام :

(ا) أن يكون التحريم معلوما من قبل ثم يقع الشك فى المحلل : فهذه شبهة يجب اجتنابها ، ويحرم الاقدام عليه (كأن يرمى إلى صيد فيجرحه ويقع فى الماء فيصادفه ميتاً ولا يدرى أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فهذا حرام

لأن الأصل التحريم إلا إذا مات بطريق معين، وقد وقع الشك فى الطريق فلا يترك اليقين بالشك) .

(ب) أن يعرف الحل ويشك فى المحرم : فالأصل الحل وله الحكم .

(ﺣ) أن يكون الأصل التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله : فهذا ينظر فيه فإن استندت غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذى تختار فيه أنه يحل — إذ لا يدفع اليقين بالشك — واجتنابه من الورع .

(د) أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعا : فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم إذ الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن .

(٢) شك منشؤه الاختلاط : وهذا ثلاثة أقسام :

(ا) أن تستبهم العين بعدد محصور (كما لو اختلطت الميتة بذكية) فهذه شبهة يجب اجتنابها بالاجماع لأنه لا مجال للاجتهاد .

(ب) حرام محصور بحلال غير محصور : (كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد بل له أن ينكح من شاء منهن) .

(ﺣ) أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر : (كحكم الأموال فى زمننا هذا) فلا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه أنه حرام وأنه حلال ، إلا أن يقترن بتلك العين علامة على أنه من الحرام ، فان لم يكن فى العين هذه العلامة فتركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله (فلو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق فى الدنيا حلال ، فما جاوز حده انعكس إلى ضده ومهما حرم الكل حل الكل) وبرهان الغزالى أنه إذا وقعت هذه الواقعة ، فباطل أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا عن آخرهم ، وباطل قطعا أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمق ، وفاسد أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا

من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة ، فلم يبق إذن إلا الحل الذى رآه .

(٣) أن يتصل بالسبب المحلل معصية إما فى قرائنه وإما فى لواحقه وإما فى سوابقه أو فى عوضه ، وكانت من المعاصى التى لاتوجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل : ويضرب لنا الغزالى مثلا لكل فيقول : إن مثال المعصية فى القرائن البيع فى وقت النداء يوم الجمعة والبيع على بيع الغير ! ومثال اللواحق كل تصرف يفضى فى سياقه إلى معصية كبيع العنب من الخمار ، والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده عصيان الإعانة على المعصية . وأما المقدمات فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات : العليا تشتد الكراهة فيها مابقى أثر فى المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب ، والوسطى كالامتناع عن طعام واصل على يد سجان ، والثالثة وهى تنطع كالامتناع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنا أو القذف وليس هو كما لو عصى بأكل الحرام . وللمعصية فى العوض أيضا ثلاث درجات : العليا تشتد الكراهة فيها كأن يشترى شيئا فى الذمة ويقضى ثمنه من غصب أو مال حرام ، فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب ، فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ، فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ، وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة . والوسطى أن لايكون العوض غصبا ولا حراما ولكن يتهيأ لمعصية كما لو سلم عوضا عن الثمن عنبا والآخذ شارب الخمر . والسفلى هى درجة الموسوسين وذلك ان يحلف إنسان على أن لايلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوبا ، فهذا لا كراهية فيه ، والورع عنه وسوسة !

(٤) الاختلاف فى الأدلة : فإن ذلك كالاختلاف فى السبب ، لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة ، والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة ، فهو سبب فى حق المعرفة ، ومالم يثبت فى معرفة الغير فلا فائدة لثبوته فى نفسه وإن جرى سببه فى علم الله ، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع (مثل

تعارض عمومين فى القرآن أو السنة أو تعارض قياسين وعموم ، وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح ، فإن ظهر ترجيح فى جانب الحظر وجب الأخذ به ، وإن ظهر فى جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه) أو لتعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة (كتعارض شهادتى فاسقين أو قول صبي وبالغ ، فإن ظهر ترجيح حكم به والورع الاجتناب ، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف) أو لتعارض الأشباه فى الصفات التى تناط بها الأحكام (كأن يوصى بمال للفقهاء فيعلم أن الفاضل فى الفقه داخل فيه ، وبينهما درجات لاتحصى يقع الشك فيها ، فالمفتى يفتى بحسب الظن ، والورع الاجتناب) !

(٥) ويقول الغزالى إنه يجب استفتاء القلب تبعاً للحديث الشريف «استفت قلبك ، وإن أفتوك وأفتوك » ، ومن لم يثق بقلب نفسه فليلتمس النور بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال ؛ اى أنه يرى وجوب أن لا يقتصر الإنسان على اجتناب الحرام بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ، ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتى قلبه فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه وإذا حملت إليه سلعة رابه أمرها فليسأل عنها حتى يعرف وإلا آكل الشبهة (فإن كان المتعامل تاجراً وجب أن ينظر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله) .

٥٨ — العدل فى المعاملة : ويبين لنا الغزالى العدل واجتناب الظلم فى المعاملة ، فيقول :

(١) بوجوب ملاحظة ما يعم ضرره : فالاحتكار ظلم عام وصاحبه مذموم فى الشرع إذا كان احتكاراً للطعام (فى ادخار الطعام انتظاراً لغلاء الأسعار) ، وأما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير وأمثاله فلا يتعدى النهى إليه وإن كان مطعوما ، وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسداً يغنى عن القوت فى بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه ، فهذا فى محل نظر ! وترويج الزيف من الدراهم

فى أثناء النقد ، فهو ظلم إذ يستضر به العامل إن لم يعرف وإن عرف سيروجه على غيره .

(٢) ما يخص ضرره العامل : فكل ما يستضر به العامل فهو ظلم وإنما العدل أن لا يضر بأخيه المسلم ، والضابط الكلى فيه أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه ، فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغى أن لا يعامل غيره به بل ينبغي أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره ، أما تفصيله ففى أربعة أمور :

(١) ترك الثناء : فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فإن قبل المشترى ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذبا ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه ، إلا أن يثنى على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشترى ما لم يذكره ولا ينبغى أن يحلف عليه ألبتة .

(ب) أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئاً فذلك واجب : فإن أخفاه كان ظالما غاشاً وكان تاركا للنصح فى المعاملة ! والغش حرام فى البيوع والصنائع جميعاً ، ولا ينبغى أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه ، بل ينبغى أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب ؛ فبذلك يتخلص .

(حـ) أن لا يكتم فى المقدار شيئاً . وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفى الكيل ، قال الله تعالى « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ، ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى وينقص إذا أخذ ، وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو فى كلمة ولا ينصف بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت المطففين !

(د) أن يصدق فى سعر الوقت ولا يخفى منه شيئاً :

(٣) الإحسان فى المعاملة : ويقول الغزالى إن رتبة الإحسان تنال بواحد من ستة أمور :

(ا) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة .

(ب) والمشترى إن اشترى طعاماً من ضعيف ، أو شيئاً من فقير ، فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسناً ، والكمال فى أن لا يغبن ولا يغبن .

(حـ) فى استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه ، مرة بالمسامحة وحط البعض ومرة بالإمهال والتأخير ومرة بالمساهلة فى طلب جودة النقد .

(د) فى توفية الدين ومن الإحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى إليه يتقاضاه ، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر ، ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسطين إلى من عليه الدين ، فإن المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة ، وكذلك ينبغى أن تكون الإعانة للمشترى ، فإن البائع راغب عن السلعة يبغى ترويجها والمشترى محتاج إليها ، هذا هو الأحسن إلا أن يتعدى من عليه الدين حده ، فعند ذلك نصرته فى منعه من تعديه .

(هـ) أن يقيل من يستقيله ؛ فإنه لا يستقيل إلا متقدم مستضر بالبيع ، ولا ينبغى أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه .

(و) أن يقصد فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو فى الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة .

٥٩ — ويقول الغزالى إن شفقة التاجر على دينه تتم بمراعاة أمور أهمها : حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة ، فلينو بها الاستغناء بالحلال عن الناس ، واستعانة بما يكسبه على الدين وقياما بكفاية العيال ، وأن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، وأن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة (المساجد) قال تعالى : « رجال لا تلهيهم

تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ، ثم مهما سمع الأذان فينبغى أن لايعرج على شغل وينزعج عن مكانه ويدع كل ما كان فيه (والأفضل اتخاذ يوم الجمعة راحة) وأن لايقتصر على هذا بل يلازم ذكر الله سبحانه فى السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح ، وينبغى أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ، فإنه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب فى كل فعلة وقولة ، إنه لم أقدم عليها ، ولأجل ماذا ؟ .

٦٠ — مراقبة الله فى العجب : ويقول الغزالى إن العجب مذموم وآفاته كثيرة ، فإنه يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد منه (مع العباد) ومن الكبر الآفات الكثيرة ، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له ، وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ، ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكن منها ، ثم إذا أعجب بها عمى عن آفاتها ، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها ، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ .

ويقول الغزالى : إن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها[1] مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا (كأن يتوقع

---

(١) بالفرح بكل خير ورفعة وعلم وعمل ورأى وعقل وجمال وقوة وكل وصف كمال والاطمئنان إليه من حيث أنه صفته لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة منه .

إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ، واستبعد أنه يجرى عليه مكروه سمى هـذا دلالا بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة (ويكون مدلا عليه) .

٦١ ـــ مراقبة الله فى الحسد : ويقول الغزالى إن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل ، قال تعالى : « إن تمسسكم حسـنة تسؤهم » ، أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد ، وهذا الحسـد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسـباب الظاهرة على الجوارح (بقول أو فعـل) ، فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما فى طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل فى مقابلة الميـل من جهة الطبع فقد أديت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الأحوال أكثر من هذا (والمستغرق بحب الله تعالى ، لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهى عين الرحمة ويرى الكل عباداً لله وأفعالهم أفعالا لله ويراهم مسخرين) ، وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه ، والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقـدر قوة حب زوال النعمة وضعفه .

٦٢ ـــ مراقبة الله فى الكبرياء : وقال تعالى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » ، ويقول الغزالى إن الكبر ينقسم إلى خلق باطن فى النفس (يسمى كبرا) وإلى أعمال ظاهرة تصدر عن الجوارح (تسمى تكبرا) ، فالأصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه (فيستعظم نفسه) فهذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيـه فيحصل فى قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز فى نفسه بسبب ذلك . ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر والباطن وهى ثمرات ، ويسمى ذلك تكبراً فإنه مهما عظم

عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره ، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ، فإن كان دون ذلك فيانف من مساواته وتقدم عليه فى مضايق الطرق وارتفع عليه فى المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه ، وإن حاج وناظر أنف أن يرد عليه ، وإن وُعظ استنكف من القبول ، وإن وَعظ عنف فى النصح ، وإن رد عليه شىء من قوله غضب ، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالا لهم واستحقارا ؛ والكبر صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها فيدعوه إلى كل الأخلاق الذميمة إذ هى متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة (فلا يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقبل الحق وينقاد له ويزدرى بالناس « وإذا قيل له اتق الله ، أخذته العزة بالإثم »).

ويقول الغزالى إن التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام أخشها التكبر على الله (كفرعون إذ قال لتكبره أنا ربكم الأعلى إذ استنكف أن يكون عبداً لله ، ولا مثار إلا الجهل المحض) ، ثانيها التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر ، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » ؛ وثالثها التكبر على العباد (وهذه رذيلة عظيمة لأن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالله الملك القادر) .

٦٣ — مراقبة الله فى الصحبة : والصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق

(كالصحبة بسبب الجوار أو الاجتماع فى المدرسة أو فى السوق أو فى الأسفار) وإلى ما ينشأ اختيارا أو بقصد ، ويقول الغزالى إن الصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ، وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه ، فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ، والذى يحب فإما أن يحب لذاته وإما ان يحب للتوصل إلى مقصود مقصور على الدنيا وحظوظها (وهو مذموم إن كان القصد مذموما كحيازة أموال اليتامى ، ومباح إن كان القصد التوصل إلى مباح كنيل جاه أو مال أو علم) ؛ وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة (كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به إلى تحسين العلم وتحسين العمل للفوز فى الآخرة ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم) ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى بأن يحب لله وفى الله ؛ وهذا أعلى الدرجات وأدقها وأغمضها (وهو ممكن لأن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد[1] .

ويقول الغزالى إن « كل من يحب فى الله ، لابد أن يبغض فى الله ، فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله ، فإن عصاه فلا بد أن تبغضه ، فإذا اجتمع فى شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، وإظهار البغض إما بالقول فبكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ فى القول أخرى ، وإما فى الفعل فبقطع السعى فى إعانته مرة وبالسعى فى إساءته وإفساد مآربه أخرى ، وبعض هذا أشد من بعض وهو بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه ، أما ما يجرى مجرى الهفوة التى يعلم أنه متندم عليها ولا يصر عليها ، فالأولى فيه الستر والإغماض » . وتطبيقا على هذا المبدأ نرى الغزالى

---

(١) (فمن أحب إنسانا حباً شديداً أحب محبه وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه ، وأحب من يتسارع إلى رضى محبوبه ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب استولى عليه فيتعدى إلى كل موجود سواه فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته) .

يقول إن الأولى الإعراض عمن يعصى بفعل يتأذى به غيره بل الاستحباب فى إهانتهم (وذلك كالظلم فى الدماء والأموال والأعراض — وبعضها أشد من بعض — وكمن يدعو غيره للفساد كصاحب الماخور الذى يجمع بين النساء والرجال ويهيء أسباب الشرب والفساد) ، وكذلك يرى الاستحباب فى إظهار بغض المبتدع الذى يدعو إلى بدعته ، ومعاداته والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد (كترك الجواب عن سلامه فى ملأ ، أما إن سلم فى خلوة فلا بأس برد جوابه) ؛ ويرى استحباب الإعراض عن العامى المبتدع الذى لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به ونصح ولم ينتصح (إن كان فى الإعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه) وأما الكافر فيقتل ويرق إن كان محاربا ، وأما الذمى فيرى أنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار إلى أضيق الطرق وبترك المفاتحة بالسلام ، فإذا قال السلام عليك قلت وعليك ؛ ويرى أن الأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته ، وأن الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهى إلى حد التحريم . وأما الذى يفسق فى نفسه بمقارفة محظور يخصه كالذى يشرب ويزنى ، فيرى أنه فى وقت مباشرته إن صودف يجب منعه عما يمتنع به ولو بالضرب والاستخفاف[1] وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فيجب نصحه إن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه ، وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع (والمستفتى هو القلب فى الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه) .

٦٣ — وجهة نظرنا فى معاملة غير المسلمين : وغير المسلمين ينقسمون إلى

(١) ونرى وجوب ترك عقوبة الفعل لأولياء الأمور منعاً من الفوضى وإساءة استعمال هذا الحق ، فيؤدى إلى الجرائم !

مشرك مجس (ويدخل فيهم الوثنيون والمجوس والطبيعيون) وإلى كتابيين (وأظهرهم الآن المسيحيون واليهود) ، والفريق الأول لكثرة عدده فى العالم أرى أن نخوتنا الدينية توجب على خاصتنا الاتصال به لكى تنشر الدعوة الإسلامية بين ظهرانيهم ، وهذا لايكون بالابتعاد والعنف بل يكون بالتودد واللطف ، وأما الفريق الثانى فأرى أنه مادامت المعاملات المادية تقتضى الاتصال ، ويدعو هذا الاتصال إلى الحسنى فى المعاملة والاخلاص فيها ، ومادامت الإنسانية تقرر اجتماعنا جميعا فى الشعور باللذة والألم ، وإن اختلف هذا الشعور واختلف مداه واختلفت درجته من حيث السمو الروحى ، ومادام الناس جميعا عباداً لله فيجب أن نحب فيهم محاسنهم الخلقية والمعنوية لهذا المعنى ، ومادام القلب لا يمكن قراءته والخاتمة لا يستطاع معرفتها فقد يكون مؤمنا سرا بقلبه وقد يموت مسلما ، مادام هذا كذلك فالرأى وجوب أن نفهم أن اختلاف الأديان أمر أراده الله إذ قال فى كتابه الكريم « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » وقال « قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » وقال « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » ، فيجب أن نعامل غير المسلمين نفس المعاملة الأمينة التى نعامل بها المسلم ، وفى تعميم حديث « خاب عبد خسر ، لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر » خير دليل على ذلك !

وقد وضع لنا النبى الكريم وأصحابه أسوة حسنة إذ كانوا يحضرون ولائم غير المسلمين ويغشون مجالسهم ويشيعون جنائزهم ويعزونهم فى مصائبهم ، وأمرنا الإسلام بمساواتهم أمام القانون وأن نوفيهم حقوقهم كاملة ولا نبخسهم منها شيئاً ، بل لقد أمرنا الله فى كتابه العزيز أن نعامل غير المسلمين كما نعامل المسلمين بمكارم الأخلاق عن صفاء نية لا مواربة ومداهنة خوفا منهم أو طمعا فيهم فقال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » . فيجب أن نعامل مجموعهم معاملة صافية وصديقهم معاملة مخلصة أمينة ، وأن

نحب فيهم مايحب من جمال حسى وخلق ومعنوى ، وأن نكره فيهم مايكره من قبح وأقبح القبح سوء العقيدة وفسادها ، ولكننا إذا كرهنا سوء العقيدة فليس معنى هذا كراهية أصحابها ، وإن كنا نبغض فساد العقيدة فليس معنى هذا البغض لمعتنقيها ، لأنه يجب أن نحب لعباد الله جميعا مانحب لأنفسنا فيجب أن نحب لفاسد العقيدة أن يقلع عنها ويرجع لربه ، فإذا رجع فرحنا برجوعه ، وإذا لم يرجع فقد يرجع يوماً ما وقد يكون راجعا بالفعل ولكنه لاعتبارات كثيرة يراها قد رجع سراً ، وإذا لم يرجع فأمره لله ، ويجب أن نحزن على عدم رجوعه لا أن نبغضه عليه لأنا لاندرى بماذا ختم له ، فقد يكون فى ظاهره غير راجع وفى الحقيقة قد رجع ، والمعاملة الأمينة المخلصة على هذا الاعتبار حب فى الله لأنك قد راقبت الله فى معاملة عبد من عباده ، ولكن إذا ظهر من هذا الغير مسلم مايدل على الاصرار على عقيدته بمحاربة الإسلام أو الطعن فيه أو إيذاء المسلمين لأنهم مسلمون أو العمل على إخراج مسلم عن دينه بالاغراء أو التغرير ، فهنا يجب بغضه (لعمله ولذاته) ويجب تحقيره والازدراء به وقطع كل معاملة معه بل معاداته ، وهنا فقط يكون بغضه فى سبيل الله .

هذه هى وجهة نظرنا ، وليس معنى ذلك أن الغزالى مخطىء فى وجهة نظره لأنها فى زمانه كانت أحسن وجهة لذهاب كل الملل والنحل فى التعصب إلى أبعد مدى ، وحتى إذا قلنا بأن وجهة نظره فى بغض غير المسلمين وفى نوع معاملتهم خاطئة ، فإنه لا يقلل من مكانة نبل آرائه إذ العصمة والكمال لله وحده . وآراء الغزالى التى يمكن أن تكون موضع خلاف قليلة ولا يمكن أن يقال إنه خاطىء فيها بل كل ما يمكن قوله إنه قد توجد وجهات نظر أخرى تكون موضعا للتساؤل هل الأحسن الأخذ بها أم لا ، فمثلا يرى الغزالى وجوب أن لا يكون التاجر (الشفيق على دينه) شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج وبأن يركب البحر فى التجارة فهما مكروهان ، لكننا نرى أن قوله تعالى

« فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضـل الله » لا يتنافى مع الجد فى الترويج لسلعته والمنافسة المشروعة والسعى لأن يكون أول داخل وآخر خارج وأن يركب البحر أو غيره سعيا وراء الرزق وابتغاء من فضل الله . وذكر عند كلامه عن النكاح وجوب أن يذكر الرجل اسم الله ويكبر إذا أراد الاتصال البهيمى بزوجته ، وقد يكون هذا موضع تساؤل هل هذا أحسن أم جعل التكبير سابقا على الفعل لأن الإنسان فى هذه الحالة يكون فى حالة يحسن أن يحترم الذكر إبانها ، وأورد الغزالى نفسه فى كتابه عند كلامه عن الصلاة حديث النهى عن أن يقرب (المحصور) فى بول أو غائط (المجاهد لهما أى الواجد رغبة قوية فيهما) الصلاة لكى يتفرغ المصلى لصلاته ولكيلا يعرض له فى الصلاة ما يضطره إلى الضغط على أعضائه أو التفكير فيهما ، فيمكن قياس هذه بتلك ، كما يمكن أن يقال بوجوب ذكر الله فى أى حال ولو كان الشخص نجسا (لخروج المنى منه لاتصاله بزوجته أو لاحتلامه فى منامه ، على أن يكون هـذا بقلبه لا بلسانه) كما يمكن أن يقال بوجوب ذكر الله ولكن يجب إجلال ذكره فى حالة المباشرة للنكاح أو البول أو الغائط ، والمستفتى فيه هو القلب !

٦٥ — مراقبة الله فى السماع والوجد : ويقول الغزالى إنه لا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، بل قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته ، أما القياس فهو أن الغناء سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، أما سماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغى أن يحرم بل هو حلال بالقياس (إذ يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به) وبالنص (إذ امتن الله تعالى على عباده به بقوله « يزيد فى الخلق ما يشاء » — ومنه الصوت الحسن — ويدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن قوله « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . والوزن وراء الحسن) وإن لله تعالى سرا فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى أنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا ، فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها

مايضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء الرقص بحركات على وزنها باليد والرجل والرأس (وهذا جار فى الأوتار بالتاثير بالنغمات الموزونة لا بفهم معانى الشعر) .

فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب ، ويقول الغزالى إنها سبعة مواضع :

(١) سماع هو من جملة القربات : وهو سماع من أحب الله واشتاق إلى لقائه ، فالسماع فى حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه ومستخرج منه أحوالا [1] تكون أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به المشاهدات والمكاشفات .

(٢) غناء الحجيج : وهو مباح لإهاجته الشوق إلى بيت الله تعالى بالغناء على الطبل والشاهين بأشعار نظمت فى وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر .

(٣) ما يعتاده الغزاة من الأشعار وطرق الألحان وطرق الوزن المشجعة لتحريض الناس على الغزو واستثارة داعيته بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال ، وذلك أيضاً مباح فى وقت يباح فيه الغزو .

(٤) الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء والغرض منها التشجيع للنفس والأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع فى النفس : وذلك مباح فى قتال مباح ولذلك ينبغى أن يمنع من سائر الأصوات والألحان المرققة التى تحلل عقدة الشجاعة وتضعف صرامة النفس وتشوق إلى الأهل والوطن وتورث الفتور فى القتال (كالضرب بالشاهين لأن صوته محزن مرقق) .

---

(١) تسمى بلسان الصوفية وجداً مأخوذ من الوجود والمصادفة أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع .

(٥) أصوات النياحة ونغمتها وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة والحزن: ويذم فيها ما كان حزناً على ما فات (كالحزن على الأموات)، ويحمد حزن الانسان وتحازنه على تقصيره فى أمر دينه وبكاؤه وتباكيه على خطاياه، وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب ولا أن يبكى ويتباكى كى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه، ولكن يذم تكثير الأشعار فى المواعظ (إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس) لاسيما مايتعلق بالتواصف فى العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق التى لاتحرك من قلوب أجلاف العوام إلا المستكن من الشهوات!

(٦) السماع فى أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهييجاً له: وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا، وقد أنشد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

طلع البدر علينا　　　من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا　　　ما دعى لله داع
أيها المبعوث فينا　　　جئت بالأمر المطاع

(٧) سماع العشاق تأكيداً للذة (فى مشاهدة المعشوق) وتحريكا للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس وتحصيل لذة الرجاء المقدر فى الوصال مع الأطناب فى وصف حسن المحبوب (إن كان مع المفارقة): وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته فيصغى إلى غنائها وكذلك إن غضبت منه أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال، فإن طلقها حرم عليه ذلك بعده، وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبى أو امرأة لا يحل له النظر إليها، وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل فى نفسه: فهذا حرام لأنه محرك للفكر فى الأفعال المحظورة ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه.

٦٦ — ويقول الغزالى إنه يحرم السماع بخمسة عوارض: أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها (وفى معناها الصبى

الأمرد الذى تخشى فتنته) ، وأن تكون الآلة من شعار أهل الشرب أو المخنثين (وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة) ، وأن يكون فى نظم الصوت وهو الشعر شىء من الخنا والفحش وهجو غير الكفار وأهل البدع أو الكذب على الله ورسوله ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها (وأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فلا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فإن أنزله فلينزله على من يحل له من زوجته ، فإن أنزله على أجنبية فهو العاصى باجالة الفكر فيه) ، وأن تكون الشهوة غالبة على المستمع وكان فى غرة الشباب ، وأن يتخذه دينه وهجيراه ويقصر عليه أكثر أوقاته (إذ ترد شهادته لسفاهته لأن السماع ولو أنه لذة مباحة إلا أنه لهو ، والمواظبة على اللهو جناية دينية) .

٦٧ — مراقبة الله فى الجاه : الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها والتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه (كالمدح والاطراء وكالخدمة والاعانة وكالتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد والإيثار وترك المنازعة [1]) .

ويقول الغزالى إن الجاه أحب من المال ، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه :

(١) أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه !

(٢) أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن ، وأما القلوب إذا ملكت فلاتتعرض لهذه

---

(١) فاذا معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه (ولو لم يكن كمالا فى نفسه) ، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب ، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه !

الآفات (وإنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله) .

و (٣) أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله ، أفسحت الألسنة لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً ، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لأن ذلك إذا استطار فى الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الاذعان والتعظيم . والغزالى لا يرى الكمال الحقيق إلا العلم (بمعرفة الله) والحرية (بالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر) والبعد عن التغير والتأثر بالعوارض ، ليقرب إلى الله تعالى وتعظم منزلته عنده ويتشبه بالملائكة . ولذا نراه يذم الجاه بمعناه المفهوم ، ويقول إن حكم الجاه حكم الأموال ، عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال ، وحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، ولكن يذم حبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته (ولا يوصف صاحبه بالفسق ما لم يتوصل إليه بعبادة وما لم يحمله الحب على مباشرة معصية ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة وارتكاب محظور بطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب ! ويباح طلب المنزلة بصفة هو متصف بها أو بإخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم ، لأنه صادق فى الأول ، ساتر للقبيح فى الثانى) .

٦٨ — أسباب حب المدح : ويرى الغزالى أن لحب المدح والتذاذ القلب به ثلاثة أسباب قد تجمع فى مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها ، نرى ذكر علاجها الذى رآه معها :

(١) شعور النفس بالكمال : (وهو أقوى الأسباب) ، فمهما شعرت النفس بكمالها ، ارتاحت واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح

بكمالها ، فإن كان الوصف الذى به مدح جلياً محسوساً ، كانت اللذة به أقل ولكنه لايخلو عن لذة (كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون) ، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم (كالثناء عليه بكمال العلم وبكمال الورع أو بالحسن المطلق) ، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف فى القول إلا عن تحقيق (وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالذكاء) . ويقول الغزالى إن طريق العلاج ملاحظة هذا السبب الذى لأجله يحب المدح ويكره الذم ، وطريقك فيه أن ترجع إلى الصفة التى يمدحك بها ، فإن كانت من الأعراض الدنيوية (كالثروة والجاه) فمن قلة العقل الفرح بها لأنها عروض زائلة ، وإن فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها ، وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها (كالورع والعلم) فينبغي أن لايفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك لا بمدح المادح . لانه لايزيدك فضلا ، وإن كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون إذ هو إما استهزاء بك أو غاية الجهل .

(٢) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته ، وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ ، وأن ثناءه سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه (لاسيما مهما كان الجمع أكثر) وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر ، ويضعف مهما كان المادح لايؤبه له ولا يقدر على شىء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصر . ويقول الغزالى إن معالجة هذا السبب بقطع الطمع عن الناس وبطلب المنزلة عند الله وبأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله ، فكيف تفرح به ؟

(٣) أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فان الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد فى الباطن ما مدح به . ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد . ويقول الغزالى إن هذه الحشمة التى اضطرت المادح إلى المدح ، ترجع أيضاً إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغى أن يغمه مدح المادح ويكرهه ويغضب به ، ومهما علم أن أمره بيد الخالق وأن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى ، قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم ، وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه .

٦٩ — أسباب كراهة الذم : ويقول الغزالى إن العلة فى كراهة الذم ، ضد العلة فى حب المدح ، فعلاجه أيضا يفهم منه ، فان كان من ذمك صادقا وقصده النصح والشفقة فلا ينبغى أن تذمه بل ينبغى أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، وإن كان قصده الايذاء والتعنت فهو قد تضرر به فى دينه وأنت قد انتفعت بقوله (إذ ذكرك عيبك أو أرشدك إليه أو قبحه فى عينك) ، وإن افترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى ، فينبغى أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر فى أنك فى غنى عنه وأنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو من أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ، وأن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك (إذ أهدى إليك حسناته بغيبته) .

٧٠ — أحوال الناس بالإضافة إلى الذام والمادح : ويقول الغزالى إن للناس أربعة أحوال :

(١) أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على

الذام ويكافئه أو يحب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق ، وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب .

(٢) أن يتمعض فى الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال .

(٣) أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا أول درجات الكمال ، وعلاماته أن لا يجد فى نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده اكثر مما يجده فى المادح ، وأن لا يجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح فوق ما يجده فى قضاء حاجة الذام وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لا يكون موت المادح المطرى أشد نكاية فى قلبه من موت الذام ، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام ، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام .

(٤) الصدق فى العبادة ، وهو أن يكره المدح إذ يعلم أنه فتنة عليه ، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته .

٧١ — مراقبة الله فى اخلاص العمل : ويقول الغزالى إن الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت ، والرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها ، فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله ، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس ، وهو البدن والزى وبالقول وبالعمل وبالأصحاب والزائرين والمخالطين .

فالرياء هو طلب الجاه ، وهو يكون بالعبادات أو بغير العبادات (كالرياء باظهار الجمال وأنواع التوسع والتفاصح واظهار التودد إلى الناس) ، إلا أن طلب الجاه بأعمال ليست من الطاعات أهون من الرياء بالطاعات ،

وطلب الجاه كطلب المال يحرم كسبه بتلبيسات وأسباب محظورات ، واما سعته من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه (أو المال) نقصان فى الدين ولا يوصف بالتحريم (وهى رغبة تذم أو تمدح بحسب الغرض المطلوب بها).

وإذا لم يكن للمرائى بالعبادات إلا قصد الرياء المحض دون الأجر ، فتبطل عبادته بل يعصى بذلك ويأثم ، لأن فيه تلبيساً ومكراً على الناس ، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وليس كذلك (والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضاً) وهو بهذا قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزىء بالله إذ قصد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً ، ما ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه . ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ، ولو لم يكن فى الرياء إلا أن يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفى لأن المرائى عظم فى قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فعند هذا كان شركا خفياً .

٧٢ — ويقول الغزالى إن أغلظ الرياء هو الرياء بالأصول وأغلظها الرياء بأصل الايمان (وصاحبه منافق مخلد فى النار ، وهو كمن يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه) ويليه الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين (كأن يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر) ، ويليه الرياء بالنوافل والسنن التى لو تركها لا يعصى ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتور رغبته فى ثوابها ولا يثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها (كحضور الجماعة فى الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة ، وهذا دون ما قبله) . أما الرياء بأوصاف العبادات فعلى ثلاث درجات :

(١) أن يرائى بفعل ما فى تركه نقصان العبادة (كالذى إذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات)، وهذا استهزاء ممقوت .

(٢) أن يرائى بفعل مالا نقصان فى تركه ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته (ككثرة الخلوة فى صوم رمضان وطول الصمت) .

(٣) أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا (كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول) ، والكل مذموم .

وللمرائى مقصود لامحالة ، وللمراءى لأجله ثلاث درجات :

(١) أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية (كأن يظهر الحكمة على سبيل الوعظ وقصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، أو يظهر الورع ليعرف بالأمانة فيولى الأوقاف أو مال الأيتام فيأخذها) ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها (كأن يجحد وديعة) ويريد أن ينفى التهمة عن نفسه فيظهر التقوى (ويتصدق بالمال فى مثالنا ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره) .

(٢) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا (كالذى يشتغل بالوعظ لتبذل له الأموال وترغب فى نكاحه النساء الجميلات) .

(٣) أن لايقصد نيل وإدراك حظ ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة (كالذى يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم) .

٧٣ — ويقول الغزالى إن الرياء جلى وخفى ، فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا هو مالا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، وأخفى من ذلك مالا يؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومهما لم يؤثر فى الدعاء إلى العمل لم يمكن أن

يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته . وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لايريد الإطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه ، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون ، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ، إذ السرور أقسام لايكره منها إلا أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس ، فيحمد فرحه بجميل نظر الله له باطلاع الخلق على الجميل من أحواله « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا » وأن يستدل باظهار الله الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا إنه كذلك يفعله فى الآخرة ، وأن يسر باقتداء المطلعين به فى الطاعة (لأن له زيادة على أجر العلانية بما أظهر آخراً ، أجر السر بما قصد أولا من اخفاء الطاعة والاخلاص لله ، ومثل أجر أعمال المقتدين به) ، وأن يفرح بطاعة المطلعين على طاعته فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة (ويكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه) .

٧٤ — وإذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه بعد الفراغ سرور بمجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لايفسد العمل ، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالما عن الرياء . ويقول الغزالى إن الاظهار قسمان :

(١) إظهار نفس العمل كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها للحديث القائل « من سن سنة حسنة فعمل بها ، كان له أجرها وأجر من تبعه » .

(٢) أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر فى هذا أشد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى فى الحكايات زيادة ومبالغة ، وللنفس لذة فى إظهار الدعاوى العظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغرت نفسه فى عينه واستوى عنده مدحهم ، وذمهم ، وذكر ذلك عند

من يرجو الاقتداء به والرغبة فى الخير بسببه ، فهو جائز بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لأنه ترغيب فى الخير ، والترغيب فى الخير . . . خير !

٧٥ — والأصل فى الإخلاص استواء السريرة والعلانية ، ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ماتختلج به الخواطر فى الشهوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك ، فإرادة العبد لإخفائها ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك . ويقول الغزالى إن للصادق الذى لايرائى ستر المعاصى ويصح قصده فيه ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه :

(١) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره فى القيامة إذ ورد فى الحديث الشريف « ما ستر الله على عبد ذنباً فى الدنيا ، إلا ستره الله عليه فى الآخرة » وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان .

(٢) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ويحب سترها للحديث الشريف « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » ، فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ، وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله ظهور المعاصى .

(٣) أن يكره ذم الناس له به (كما يكره حمدهم) من حيث أن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى وذكره ، وهذا أيضاً من قوة الإيمان .

(٤) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته ذم الناس من حيث يتأذى بطبعه فإن الذم مؤلم للقلب . وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص ، وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته

إلى مالا يجوز حــذراً من ذمهم (لأنه لايجوز أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله) .

(٥) أن يكره الذم من حيث أن الذام قد عصى الله تعالى به ، وهذا من الإيمان .

(٦) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه .

(٧) مجرد الحياء من القبائح إذا شوهدت منه ، وهو خلق كريم (وأحسن منه أن تستحيى من الله) .

(٨) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدى به ، وهذه العـلة الواحدة فقط هى الجارية فى إظهار الطاعة ، ويختص ذلك بمن يقتدى به ، وبهذه العلة أيضاً ينبغى أن يخفى العاصى أيضاً معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه .

٧٦ — ومن الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به ، وذلك غلط وموافقة للشيطان ، ويقول الغزالى بل الحق فيما يترك من الأعمال ومالا يترك لخوف الآفات ، أن :

(١) الطاعات اللازمة للبدن التى لا تتعلق بالغير ولا لذة فى عينها (كالصوم والصلاة والحج) لخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغى أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه ، فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء فليشتغل بالعمل . الثانية أن ينبعث لأجل الله ولـكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغى أن يترك العمل ، لأنه وجد باعثاً دينياً فليشرع فى العمل وليجاهد نفسه فى دفع الرياء وتحسين الإخـلاص بالزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول ، والثالثة أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغى أن يجاهد فى الدفع ولا يترك العمل لـكى يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتم العمل (فمن مكايد الشيطان ترك العمل خوفاً

على الناس أن يقولوا إنه مراء فيعصون الله بهذا ، لأنه أساء الظن بالمسلمين ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة ، وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مراء هو عين الرياء) .

(٢) ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار : فالإمارة مثلا من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص ، فإذا صارت الولاية محبوبة (لحب الجاه ونفاذ الأمر) كان الوالى ساعياً فى حظ نفسه ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح فى جاهه وولايته وإن كان حقاً ويقدم على ما يزيد فى مكانته وإن كان باطلا وعند ذلك يهلك ، والحق أن الخواص الأقوياء فى الدين والذين لا تميلهم الدنيا ولا يستفزهم الطمع ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، لا ينبغى أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا ينبغى أن يدوروا بها فيهلكوا . وأما القضاء فحكمه حكم الإمارة ينبغى أن يتركه الضعفاء ، ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه ، فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصاً له فى الإهمال أصلا ، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله . وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو فى الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً فى بعض الأحوال ، وهذه الأمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفى وإثبات ، فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى مالا يريبه . ثم قد يقع غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ، ولا خلاف أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه ، وللواعظ الصادق المخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس علامات إحداها أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً وأغزر منه علماً والناس له أشد قبولا ، فرح به ولم يحسده (ولا بأس

بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه) والأخرى أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقى كما كان عليه ، والأخرى أن لا يحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الأسواق الخ ..

٧٧ — مراقبة الله فى التوبة : ويقول الغزالى إن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : أولها العلم وهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ؛ ثار من هذه المعرفة تألم للقلب وتأسف بسبب فوات المحبوب بفعله (يسمى ندما) وتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة (دائمة) فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعثت منه فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال (بالترك لكل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال) وبالماضى (بتلافى ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر) وبالمستقبل (بالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر بأن يعقد مع الله عقداً مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها) . وكثيراً ما يطلق إسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدمة والترك كالثمرة .

٧٨ — والتوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة (العلم والندم والترك) ، وهى واجبة على الفور ، إذ معرفة كون المعاصى مهلكات هو واجب على الفور ، ووجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة . ويقول الغزالى إن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون ، لعلكم تفلحون » فعمم الخطاب ، ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، وإذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل (إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة

الأربعين ، وأصله إنما يتم عندمراهقة البلوغ ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين) فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس والف وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل شيئاً فشيئاً على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان ، وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادة . فالغزالى يرى أن كل بشر لا يخلو عن معصية إما بجوارحه وإما بالهم بالذنوب بقلبه وإما بوسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله وإما بغفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله ، ويقول إنه « لا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص وإنما يتفاوتون فى المقادير ، فأما الأصل فلابدمنه ، فاذا بلغ كافراً فعليه التوبة من جهله وكفره وإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلا عن حقيقة اسلامه فعليه التوبه من غفلته بتفهم معنى الاسلام ، فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والاطلاق والانفكاك والاسترسال » .

ويقول « ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (أى عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو) ، ومن ترك المبادرة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعاً فلا يقبل المحو ، والثانى أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو » .

ويقول الغزالى إن التوبة إذا استجمعت شرائطها (بأن كانت صحيحة نصوحا خالية من الشوائب) فهى مقبولة لا محالة ، لأن كل قلب سليم مقبول عند الله ، والقلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها ، ونار

الندم تحرق تلك الغبرة ، ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة !
ولا يعنى الغزالى من وجوب قبول التوبة الصحيحة على الله إلا ما يريده القائل إن العطشان إذا شرب وجب زوال العطش . وليس فى شىء من ذلك ما يريد المعتزلة بالايجاب على الله تعالى ، أى يرى أن الله خلق الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى ، ولكن ماسبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة .

٧٩ — الصغائر والكبائر : والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أو فعل ، وتنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر ، ويرى الغزالى أن الكبائر على ثلاث مراتب :

(١) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر (ومنه الشرك بالله وكفر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته) ويليه الاصرار على معصية الله وتناول الدين بالاغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب فى المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله ، وبعضها أشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه .

(٢) ما يسد باب حياة النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر ، لأن ذلك يصدم عين المقصود (التوصل بالدنيا للآخرة بمعرفة الله تعالى) وهذا يصدم وسيلة المقصود ، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر ، ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل (ولذا ينبغى أن تكون فى الرتبة دون القتل لأنه

يفوت تمييز الأنساب ، وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته) .

(٣) مايتعلق بالأموال فإنها معايش الخلق فينبغى أن تحفظ لتبق ببقائها النفوس ، ولذا إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له ، فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر (كالسرقة وأكل مال اليتيم وتفويتها بشهادة الزور وأخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس — الخفية التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقاً فتغمس صاحبها فى النار) وأما أن أكل الربا (وليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع) وأكل دانق بالخيانة أو الغصب أو الظلم (كإخراج الناس من مساكنهم أو بلادهم أو أوطانهم) من الكبائر ، ففيه نظر ، وذلك واقع فى مظنة الشك أنه غير داخل تحت الكبائر (لكن يعتبر ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم ، من الكبائر أن يأكل الربا وهو يعلم) .

أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر (فلو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما شرب ماء نجس) . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال فى الرتبة ، ولتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، فهو يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على الشهادة غيره ، فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظيمة بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره (ويراد بالسحر كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة) . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين ، فهذا أيضاً ينبغى أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف (وجملة عقوق الوالدين أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما ، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما أو يسباه فيضر بهما ويجوعان فلا يطعمهما) .

٨٠ — ويقول الغزالى إن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه وصغير بالاضافة إلى ما فوقه (فالمضاجعة مع الأجنبية مثلا أى اصابتها بكل شىء إلا المسيس، كبيرة بالاضافة إلى النظرة صغيرة بالإضافة إلى الزنا) ويرى مع هذا أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والمواظبة (لأن القليل من السيئات إذا دام، عظم تأثيره فى إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر — كالمراودة والمقدمات فى الزنا والمشاحنة السابقة والمعاداة فى القتل ، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره) ، واستصغار الذنب (لأنه كلما استعظمه من نفسه ، صغر عند الله تعالى ، وكلما استصغره ، كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له وذلك يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الألف به ، ولذلك لا يؤاخذ بما جرى عليه فى الغفلة) ، والسرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، والتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ، وإتيانه الذنب وإظهاره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره (لأن ذلك تحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، ويتفاحش الأمر إذا رغب الغير فيه وحمله عليه وهيأ أسبابه له) ، وكذلك يكبر الذنب — فلا تكفره الصلوات الخمس — إذا كان المذنب عالماً يقتدى به ، وفعله بحيث يرى ذلك منه .

٨١ — شروط صحة التوبة : ويقول الغزالى إن شروط صحة التوبة فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش فيه عما مضى من عمره يوماً يوما ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها (فيؤديها) ، وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها فينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد (كشرب خمر مثلا) فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث

الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بقدر تلك السيئات (فيكفر شرب الخمر مثلا بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه) . وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلوب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها . فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات . وإن كان ذلك أيضاً مؤثر فى المحو ، وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً . فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها (فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار مايعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب الخ .) ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد . فليستحلهم أو ليؤد حقوقهم إن قدر وإلا فليكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم !

٨٢ — وظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين : حرقة الندم وشدة المجاهدة بالترك فى المستقبل . فاذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقى فى نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل ؟ يقول الغزالى إن الذى انقطع نزوع نفسه ، له حالتان :

(١) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا ، إذ تركه بالمجاهدة دليل قاطع على قوة النفس واليقين والدين .

(٢) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها ، فهذا أعلى رتبة من المجاهد القامع لهيجان الشهوة وقمعها ، لأن الجهاد ليس مقصوداً لعينه فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ، وتصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدىء والغافل لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . وشرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته . ولكن إن كان شاباً فينبغى أن يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط ، ولا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ما له نظير فى الدنيا كالحور والولدان والرحيق واللآلىء والياقوت والمرجان والدر والمسك والبسط والحرير والرياض والقصور ، فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة ، وكذلك تذكر الذنوب قد يكون محركا للشهوة ، فالمبتدىء أيضاً قد يستضر به فيكون النسيان أفضل) .

٨٣ — ويقول الغزالى : إن التائبين فى التوبة على أربع طبقات :

(١) أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة (وهى أعلى رتبة) .

(٢) تائب سالك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ، ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها ، وهذه رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى (وهى أغلب أحوال التائبين) .

(٣) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة فى بعض

الذنوب ، فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهرها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القصد والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود (فى حالة قضاء الشهوة) لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها ، وعند الفراغ يتندم لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم ، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو ، فعسى الله أن يتوب عليه .

(٤) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصرين يخاف عليه من سوء الخاتمة ، فان ختم له بالسوء شقى ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا تطلع عليه .

٨٤ — والاصرار على الذنوب لا يكون لفقد الإيمان (إلا إذا كان كافراً) ، بل يكون لضعفه ، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب فى الآخرة . ولكن يرى الغزالى أن سبب وقوعه فى الذنب أمور ، نرى ذكرها مع علاجها الذى رآه لها :

(١) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جعلت متأثرة بالحاضر : وعلاج هذا السبب هو الفكر بأن يقرر على نفسه ان غداً لناظره قريب والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً ، ويذكر نفسه أنه أبدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال .

(٢) أن الشهوات الباعثة على الذنوب ناجزة وهى فى الحال ، وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والألف ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس :

وعلاج هذا السبب هو معالجة اللذة الغالبة عليه وتكليف نفسه تركها

لينعم بنعيم الآخرة الدائم الخالى من الشوائب.

(٣) أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره ، إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير :

وعلاج التسويف فى التوبة هو بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف . لأن المسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم ، لأن الشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالإعتياد.

(٤) أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها ، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى :

وعلاج هذا السبب بأن يعلم أن انتظار عفو الله انتظار امر ممكن ولكنه قد لا يمكن ولا يكون .

أما إذا كان المذنب كافراً ، فيرى الغزالى أن يعالج الكفر والشك بالأسباب التى تعرفه صدق الرسل وبعلم قريب يليق بمجد عقله إذ ليس فى العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا فى كيفيته ، فان صدقوا فقد أشرف على عذاب يبقى أبد الآباد (من نار للبدن وألم فى القلب ، أى نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة) وإن كذبوا فلا يفوته إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة ، فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر .

٨٥ — مراقبة الله فى الرجاء والخوف : ويقول الغزالى إن الرجاء هو ارتياح القلب (ولذته) لانتظار محبوب (متردد فيه غير مقطوع به) تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . والرجاء باعث بطريق الرغبة يضاده اليأس (الذى يمنع من التعبد ويصرف عن العمل)

فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته ، فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى (لأن الرجاء انتظار لأجل حصول أكثر أسبابه ، فإن كان الانتظار مع انخرام أسبابه واضطرابها فيسمى غروراً وحمقاً ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الانتفاء أى إن كان انتظاراً من غير سبب فيسمى تمنياً) .

٨٦ — والخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال ، ويقول الغزالى إن المحمود منه هو الاعتدال والوسط ، فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء . وهو يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل النفع . وأما المفرط فانه الذى يقوى ويجاوز حد الإعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل . وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل والموت . فالمراد من الخوف هو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأة الجهل (لأنه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأن المخوف هو الذى يتردد فيه) والعجز (لأنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه) فاذا هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل ما يقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم ، وأفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى ، فكل ما أبطل العمل أو العقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان

بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر .

٨٧ — ويقول الغزالى إن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والمكروه إما أن يكون مكروها فى ذاته (كالنار) وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه (كالذى يغلب عليه خوف الموت قبل التوبة أو نقضها ونكث العهد أو ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو زوال رقة القلب أو الميل عن الاستقامة أو استيلاء العادة فى اتباع الشهوة المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التى اتكل عليها أو البطر بكثرة نعم الله عليه أو الاشتغال عن الله بغير الله أو الاستدراج بتواتر النعم أو انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله مالم يكن يحتسب أو تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء أو مالا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره أو تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت أو الاغترار بزخارف الدنيا أو إطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التى سبقت له فى الأزل) ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عنها ، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته .. يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا إلى بقية الأقسام.

ويقول الغزالى إن الخوف لا يتصور أن ينفك مؤمن عنه وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بسبب ضعف معرفته وإيمانه . والرجاء والخوف متلازمان لأن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته . ويجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شروط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف ، فإذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة ؛ فتقدير وجوده يروح القلب

وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه ، وأحد طرفى الشكوك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالاضافة إليه وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى « ويدعوننا رغبا ورهبا » .

٨٨ — ويقول الغزالى إن الخوف من الله تعالى على مقامين :

(١) الخوف من عذابه : وهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية . وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان[١].

(٢) الخوف من الله : وهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الخوف ، المطلعين على سر قوله «ويحذركم الله نفسه» وقوله « اتقوا الله حق تقاته » (ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب) ومن عرف الله تعالى خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، لأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلى إلى ما خلق له ، فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا . ولذا يرى الغزالى أنه ليس للملتطم فى أمواج القدر إلا التسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح « فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له

---

(١) وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامه (يوم ينفخ فى الصور) وأصناف العذاب فى الآخرة (من طول يوم القيامة وصفة العرق والمساءلة والمظالم وصفات النار) وبالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم أو سماعها .

على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة إذ كل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقبلا ، كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ، ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان نيران الخوف اشعالا ولا يمكنها من الانطفاء » .

٨٩ — ويقول الغزالى إن سوء الخاتمة على رتبتين احداهما أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة الهائلة فأن يغلب على القلب عند الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود . الثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره . وأما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين : أحدهما البدعة بأن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر ، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ، ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا إذ حال الموت كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور ، فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقنا له عند نفسه ، لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها ، فان اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم الله له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله ، والزهد والصلاح لا يكفى لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق ،

وكل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث فقد تعرض لهذا الخطر . وأما السبب الثانى فهو ضعف الإيمان فى الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو فيسود فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً ورينا ، فإذا جاءت سكرات الموت استشعر فراق الدنيا (الغالب حبها على قلبه) فيتألم ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدّر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث أنه من الله ، فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، فإذا اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا .

وأما الخاتمة الثانية التى هى دون الأولى وليست مقتضية للخلود فى النار فلها أيضاً سببان : أحدهما كثرة المعاصى وإن قوى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى ، وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوة ورسوخها فى القلب بكثرة الألف والعادة ، وجميع ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند ميله ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت . فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى .

الفصل السادس

التفكر فى خلق الله

٩٠ — معنى الفكر ومجاريه : يقول الغزالى إن معنى الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب (مثل أن الأبق أولى بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا) ليستثمر منهما معرفة ثالثة (وهى فى مثالنا أن الآخرة أولى بالإيثار) فإحضار المعرفتين السابقتين للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملا وتدبراً (غير أن التدبر والتأمل والتفكر عبارات مترادفة على معنى واحد ، والتذكر والاعتبار والنظر مختلفة المعانى وإن كان أصل المسمى واحدا ، فالاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة ، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر وفائدته تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى عنه ، وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة ، وفائدته تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة ، « فحاصل حقيقة التفكر يرجع إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأما ثمرة الفكر فهى العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة العلم لاغير ، فإذا حصل العلم فى القلب ، وإذا تغير حال القلب ، تغيرت أعمال الجوارح . . . فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها . . . وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، ولذا قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

٩١ — ويقول الغزالى إن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين (المعاملة بين العبد وبين الرب) وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين ، وجميع أفكار العبد (الدينية) إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود

وصفاته وأفعاله ، ومحب الله تعالى ينبغى أن لا يعدو نظره وتفكيره محبوبه ، وتفكره محصور فى أقسام :

(١) تفكر فى صفات نفسه لتميز المحبوب منها (من المحبوب) عن المكروه ، وكل ماهو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى (التى تتعلق بالبدن وأعضائه) وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب ، ويجب فى كل واحد من المكاره ، التفكر فى ثلاثة أمور : التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فإن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه ، وهل هو متصف بهذا المكروه فى الحال فيتركه أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه (وبعكس ذلك يكون التفكر فى المحبوبات ليعمر القلب بالأخلاق المحمودة وينزه الباطن والظاهر) .

(٢) الفكر فى جلال الله وفيه مقامان : الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تتفكروا فى ذات الله (لأن العقول تتحير فيه ، فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لايطيقون دوام النظر) أما النظر الثانى فهو النظر فى أفعاله وبدائع أمره فى خلقه .

٩٣ — وكل ما فى الوجود مما سوى الله فهو فعله وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمته وقدرته وجلاله وعظمته ، وقد ذكر الغزالى من ذلك :

(١) خلق الإنسان من نطفة فقد قال تعالى «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» وقال : « قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟ ! من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره » ، ويقول الغزالى « أنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام

فى أوجانها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة ، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيأتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ، ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مراً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها ، ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه ، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجمانا ومعربا عما فى القلب ، وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فاحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم ، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت ، وخلق اللسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا تتشابه صوتان . . . ، ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ، ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لإحالته إلى دم توصله العروق إلى سائر

أطراف البدن (يخدمها الطحال بجذب السوداء عنها والمرارة بجذب الصفراء والكلية بجذب المائية إذ تخدمها المثانة بقبول الماء ثم تخرجه فى طريق الإحليل) . . ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الإبهام على الجميع . . . . ثم خلق الأظافر على رؤسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع . . ، ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث . . . ولما ضاق الرحم عن الصبي هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب المنفذ . . . ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء هداه إلى التقام الثدى ، ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً ، وخلق الثديين ، وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبى ثم فتح فى حلمة الثدى ثقباً ضيقاً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، وأخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين حيث يحتاج إلى طعام غليظ يحتاج إلى المضغ والطحن . . . وأخرج تلك اللثات اللينة ، ثم حنن قلوب الوالدين عليه بالقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه . . .

(٢) ومن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى منا كبها وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد وإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ، وأودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذباً صافيا زلالا وجعل به كل شىء حى فأخرج به فنون الأشجار والنبات مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح والطبائع والتعهد والمنافع ، فهذا يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى

وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يصفى الدم وهذا ينوم وهذا يضعف، وبعضه يستنبت ببث البذور فى الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب فى الشجر .

(٣) ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض.

(٤) ومن آياته أصناف الحيوانات . وانقسامها إلى مايطير وإلى ما يمشى وانقسام ما يمشى إلى ما يمشى على الرجلين وإلى ما يمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات . ثم انقسامها فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع (وتأمل فى عجائب النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى الفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها إلى حاجتها) .

(٥) ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض وسعتها وعجائب ما فيها من الحيوانات والجواهر (وتأمل فى خلق الله اللؤلؤ وتدويره فى صدفه تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وتأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه) .

(٦) ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض . ولا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته (وانظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والبروق والرعود والأمطار والثلوج والشهب والصواعق) .

(٧) ومن آياته ملكوت السماء وما فيها من الكواكب إذ قال تعالى « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها » ، فانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها

ومن غير تعب فى سيرها بل تجرى جميعاً فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتب ، وتدبر عدد كوا كبها واختلاف ألوانها ثم انظر كيفية أشكالها ، ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة وهى تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، وانظر ايلاج الله الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وانظر إلى امالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف ، وقد قال تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب » .

ويقول الغزالى بعد كلامه عن فوائد السفر وأنه نوع حركة ومخالطة ، وأن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه وأنه ماسمى السفر سفراً إلا لأنه يسفر عن الأخلاق وأن فى مشاهدة آيات الله فى أرضه فوائد للمستبصر أنه « ما من ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هى توحيدها ، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس هى تسبيحها ، ولكن لا يفقهون تسبيحها لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ، ومن ركاكة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال ، ومن يسافر ليستقرىء هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات ، لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر فى موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات » ! ! . . .

٩٣ — ذكر الموت وما بعده : ويقول الغزالى إن طول الأمل له سببان أحدهما الجهل (إذ قد يعول الانسان على شبابه فيستبعد قرب الموت) والآخر حب الدنيا لأنه إذا أنس بها وبشهواتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع من الفكر فى الموت فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده « فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من

مال وأهل ودار وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه . فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه » ، فلا يزال يسوف ويؤخر على التدريج يوما بعد يوم إلى أن تخطفه المنية فى وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته !

٩٤ — ويقول الغزالى إن الألم فى سكرات الموت شديد[١] ، والقياس الذى يشهد له هو أن كل عضو لا روح فيه لا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم « فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن فلا يبق جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم ، وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه » لأن المنزوع مجذوب من كل عرق وعصب وجزء ومفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض ، ولذا انقطع صوت الميت وصياحه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهد كل قوة

(١) راجع مع ذلك آراء مضادة لذلك لابن مسكويه فى كتاب وحى الموت لمحمود على قراعه . وراجع مقال ليس فى الموت ما يخاف لمستر هوارد برى فى مجلة المختار عدد إبريل سنة ١٩٤٧ إذ يقول إن الموت خلو من الألم ، هكذا يقول الأطباء ، وهكذا يقول من شارفوا غمرات الموت وهكذا يقول الراحلون وهم فى سكرات الموت وهكذا يقول من مات ثم ارتد حيا ، وليس ذلك إنكارا لما يسبق الموت من الآلام ، كلا فإن الحشرجة البطيئة التى تصحب التهاب الرئة ، والقهقهة الخانقة التى تكون فى الغرق ، وكل الآلام التى تأتى مع الأمراض القاتلة والجروح المهلكة ، إنما هى شطر من الحياة لا من الموت !

وضعف كل جارحة ، أما العقل فقد شوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح .
فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر فيه التراب الذى هو أصل فطرته ، وترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما وتخضر أنامله ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه .. حتى يبلغ إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتبدو له صفحة وجه ملك الموت — جميلة الصورة للمطيع ، قبيحة للعاصى ولن تخرج روحه ما لم يسمع نغمة ملك الموت بإحدى البشريين إما بالجنة أو النار . ولذا كان المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

٩٥ — ومعنى الموت تغير حال فقط إذ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ويقول الغزالى إن معنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عنه بخروجه عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث ، والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده .
وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع فى الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء ، وقد استعصى عليها بعضها ،

والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها . وكل الأعضاء آلات والروح هى المستعملة لها . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها الأفراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات ، والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ، فالموت زمانة مطلقة فى الأعضاء كلها ، وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهى باقية ، وتغير حاله من جهتين إحداهما أنه سلبت منه جميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وماله ، إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ، والثانى أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له فى الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا فى النوم ، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته (وقد كان ذلك مسطوراً فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا) . . . وينكشف للمؤمن عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق » !

الباب الثانى

ما بينك وبين الناس

(المعاشرة والألفة والصحبة)

« عرفت روحى روحك حين كلمت نفسى نفسك ! إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل » (أويس بن عامر القرنى)

٩٦ — فوائد المخالطة : إن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة ، وذكر الغزالى لذلك سبع فوائد نجمعها فيما يلى :

(١) التعليم والتعلم (إذ لا يتصور ذلك إلا بالمخالطة) ، والنفع (بأن ينفع الناس بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة) والانتفاع (بالكسب والمعاملة) ، والتجارب والممارسة (ومن أهمها أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه ، وذلك لا يقدر عليه فى الخلوة) .

(٢) التأديب (بالارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات) والتأدب (بأن يروض غيره بأن يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) ونيل الثواب وإنالته (بحضور الجنائز وعيادة المرضى والتهنئة على النعم وحضور العيدين وإدخال السرور على قلوب المسلمين ، هذا على وجوب حضور الجمعة والجماعة فى سائر الصلوات إذ لا رخصة فى تركه إلا لخوف ضرر ظاهر) والتواضع (إذ لا يقدر عليه فى الوحدة) .

(٣) الاستئناس والإيناس : وهذا يرجع إلى حظ النفس فى الحال (فمؤانسة من لا تجوز مؤانسته حرام ، ويستحب الأنس بالملازمين لسمت

التقوى ، وإذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعى النشاط فى العبادة ، لأن النفس لا تألف الحق على الدوام مالم تروح) .

٩٧ — ولكن مع ذلك يرى الغزالى للعزلة ست فوائد خلاصتها : التفرغ للعبادة إذ قال الله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (ويدخل فيها الفكر والاستئناس بمناجاته والاشتغال باكتشاف أسراره تعالى فى أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض) والتخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض الإنسان لها غالبا ، والخلاص من شر الناس وأن ينقطع طمعهم عنك (إذ رضى الناس غاية لا تدرك ، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا) ، وينقطع طمعك عنهم ، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمق وأخلاقهم (إذ يسمى جالينوس النظر إليهم حمى الروح) .

ولكن الغزالى مع هذا يقول إن « الحكم على العزلة مطلقا بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ ، بل ينبغى أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته ، ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، ولذلك يجب الإعتدال فى المخالطة والعزلة » .

٩٨ — آفات اللسان : وأكثر مايسىء المعاشرة مايسميه الغزالى آفات اللسان ، وهى فيما بين الناس :

(١) المراء والجدال : وحدّ المراء هو كل طعن فى كلام الغير (لتحقيره وإظهار الكياسة) بإظهار خلل فيه إما فى اللفظ أو فى المعنى أو فى قصد المتكلم (وتركه يكون بترك الإنكار والاعتراض ، والتصديق بكل كلام سمعته إن كان حقاً والسكوت عنه إن كان كذبا ولم يكن متعلقاً بأمور الدين) . والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها ، والخصومة لجاج مذموم فى الكلام (بالخصام — ابتداء أو اعتراضاً — بالباطل أو بغير علم) ليستوفى به مال أو حق مقصود (ولكن لا يحرم

على المظلوم أن ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف ومن غير قصد عناد وإيذاء ، والأولى تركه ، لأن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الإعتدال متعذر وهى توغر الصدر) .

(٢) الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن : وهو منهى عنه إذ الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة (لاسيما فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به) بالعبارات الصريحة (مع أنه يمكن أن يكنى عليها ويدل عليها بالرموز) والشتم والتعبير هو ذكر عبارات يستقبح ذكرها . واللعن هو الطرد والإبعاد من الله تعالى (وهو لا يجوز إلا مع الأجناس المعروفين بأوصافهم المبعدة منه — كالظالمين والكافرين والفاسقين لعنة الله عليهم — دون الأشخاص المعينين) ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان (حتى الظالم) بالشر .

(٣) المزاح : والمنهى عنه الإفراط فيه ، لأنه يورث كثرة الضحك التى تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار ، وقد كان النبى الكريم يمزح ولا يقول إلا حقا ، وكان فى مزاحه يتبسم فتنكشف فيه سنه ولا يسمع له صوت . أما الاستهزاء وهى الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه (بالمحاكاة فى الفعل والقول أو بالإشارة والإيماء) فحرام مهما كانت مؤذية . وأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح أن يسخر به فالسخرية فى حقه من جملة المزاح .

(٤) إفشاء السر : وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار .

(٥) الوعد الكاذب : ومن وعد وهو على عزم الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر فهو منافق ، فان عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً .

(٦) الكذب فى القول واليمين : وبه يعتقد المخبر الشىء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره . ويرى الغزالى أن

« الكلام وسيلة للمقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً ، فالكذب فيه حرام . وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً » .

ولكن الحد فيه أن الكذب محذور « فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعاً فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة ، فان شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه » ، وإذا اضطر الإنسان إلى الكذب فالتعريض أهون (ومثاله إذا طلبك من تكره أن تخرج إليه وأنت فى الدار ، فقلت للخادم قل له اطلبه فى مكان كذا ، أما إذا قلت له ليس هينا فكذب) . والمعاريض تباح بغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز ، وأما الكذب الصريح (كتغرير شخص بان امرأة قد رغبت فى تزويجه) فان كان فيه إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لمطايبة فينقص من درجة إيمانه . ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ما جرت به العادة فى المبالغة (كقوله طلبتك مائة مرة) فان لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً ، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها فى الكثرة لا يأثم ، وإن لم تبلغ مائة . ومما يعتاد الكذب فيه أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهيه ، وهو حرام إن لم يكن فيه غرض صحيح .

(٧) الغيبة : وهى أن تذكر أخاك بما يكرهه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه ، وهى حرام لأن فيها تفهيم الغير نقصان شخص معين — حى أو ميت — فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والكتابة والحركة . وكذلك يحرم سوء الظن (اى عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ،

أما الخواطر والشك وحديث النفس فيعفى عنها) لأن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان (تشاهده بعينك أو تسمعه بأذنك) لا يقبل التأويل ، وأمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب عما كان فينفر عنه نفوراً ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه (لذلك إذا خطر لك خاطر سوء على أخيك فينبغى أن تزيد فى مراعاته) وأما إذا أخبرك عدل فلا تصدقه ولا تكذبه (كأنه لم ينكشف لك شىء) ، وينبغى أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه ، وكذلك إن كان من عاداته ذكر مساوىء الناس (لأنه فى الحقيقة ليس بعدل) . ومن ثمرات سوء الظن التجسس (للتحقيق) .

والرخص فى ذكر مساوىء الغير أغراض صحيحة فى الشرع لا يمكن التوصل إليها إلا به وهى ستة أمور : التظلم والاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح والاستفتاء (كأن يقول ظلمنى أخى فكيف طريقى فى الخلاص ، والأسلم التعريض بأن يقول ما قولك فى رجل ظلمه أخوه) وتحذير مسلم من الشر (على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة) وأن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه (كالأعرج) وأن يكون مجاهراً بالفسق (كالمخنث والمجاهر بشرب الخمر ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر ولا يكره أن يذكر به ولكن لو ذكرته بغير ما يتظاهر به أثمت) .

ويجب على المغتاب أن يتوب ويندم على ما فعله ليخرج به من حق الله ثم يستحل المغتاب (وهو حزين فى باطنه متأسف على فعله) ليحله فيخرج من مظلمته ، وسبيله أن يبالغ فى الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه ، وإلا كان اعتذاره حسنة محسوبة له .

(٨) النميمة : وهى إفشاء ستر الغير عما يكره كشفه سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول

من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً فى المنقول عنه أو لم يكن ، وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث . واسم النميمة إنما يطلق على الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، فإن كان إلى من يخاف جانبه فهى سعاية[١] .

ومذموم كلام ذى اللسانين الذى يتردد (نفاقاً) بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه (أى يجرى مع كل ريح فهو على قول ابن مسعود إمعة) فينقل كلام كل منهما إلى الآخر ، أو يحسن لكل منهما ما هو عليه من المعاداة لصاحبه ، أو يعد كلا منهما بأن ينصره ، أو يثنى على كل منهما فى معاداته وإذا خرج من عنده يذمه (ولكن قد يصادقهما صداقة ضعيفة ، فله أن يجامل كلا منهما صادقاً ، وينبغى أن يسكت أويثنى على المحق من المتعادين بين يدى عدوه) .

(٩) المدح : وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، فالمادح قد يفرط فينتهى به إلى الكذب ، وقد يكون به منافقا لأنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله ، وقد يقول مالا يتحققه ولاسبيل له إلى الاطلاع عليه ، وقد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز (إذ ينبغى أن يذم ليغتم) وقد يرضى عن نفسه فلا يعمل ، فإن سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوباً إليه !

٩٩ — الغضب : وكذلك يسىء المعاشرة مع الناس الكبر والغضب والحقد والحسد ، ويقول الغزالى فى الغضب إن الله خلق طبيعة الغضب من النار وغرزها فى الإنسان[٢] ، فمهما صد عن غرض من أغراضه ، اشتعلت

---

(١) وكل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلاناً قال فيك كذا أو فعل فى حقك كذا أو هو يدبر فى إفساد أمرك أو فى ممالأة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجرى مجراه ، فعليه ستة أمور : أن لايصدقه ، وأن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله ، وأن يبغضه فى الله تعالى ، وأن لا يظن بالغائب السوء ، وأن لا يحمله ما حكى له على التجسس ، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه ، ولا يحكى نميمته .

(٢) ولهذا يقسم الغزالى الناس فى الغضب إلى أربعة :

=

نار الغضب وثارت به ثورانا يغلى به دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن كما ترتفع النار ، فلذلك ينبسط الدم وينصب إلى الوجه فيحمر إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فان صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزنا ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب.
ويقسم الغزالى الناس فى قوة الغضب على درجات ثلاث :

(١) التفريط بفقد هذه القوة أو ضعفها : (وذلك مذموم) ، وثمرة هذه الحمية الضعيفة قلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الأذى من الأخساء ، وصغر النفس والقماءة والخور فى السكوت عند مشاهدة المنكرات والعجز عن رياضة النفس عند الميل إلى الشهوات الخسيسة (إذ لا تتم الرياضة إلا بغضبه على نفسه عند ميلها إليها) ؛

(٢) الافراط فى الغضب : وهو أن يغلب حتى يخرج عن طاعة العقل والدين ولا يبقى للمرء معه بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، وسبب غلبته أمور غريزية (بأن يكون الإنسان بفطرته مستعداً لسرعة الغضب لحرارة مزاج القلب) وأمور إعتيادية (بأن يخالط قوما يسمون طاعة الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة فيتشبه بهم فيقوى به الغضب ، وهـذا جهل لأنه مرض ونقصان عقل وضعف نفس ، وآية ذلك أن المرأة والصبى والشيخ الضعيف وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضباً) ومهما اشتدت نار الغضب أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة (إذ ينطفىء نور العقل وينمحى فى الحال بدخان الغضب).

= ١ — سريع الغضب والرضى (وكذلك المؤمن) .
٢ — بطىء الوقود والخمود .
٣ — بطىء الوقود سريع الخمود (وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة) .
٤ — سريع الوقود بطىء الخمود (وهذا هو شرهم إذ يحقد على الدوام)

ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة فى الاطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة وتقبح الصورة . وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذى يستحى منه ذو العقل ويستحى منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ ، وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فان هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب عجز عن التشفى ، رجع الغضب على صاحبه فلطم نفسه ومزق ثوبه ويعدو عدو الواله المتحير وربما يسقط صريعا لا يطيق النهوض ، ويعتريه مثل الغشية فيضرب الجمادات والحيوانات ويشتمها ويخاطبها (كالمجانين) ، وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التى بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا . وأما أثره فى القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساآت والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء .

(٣) غضب محمود ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وهو الوسط الحق بين الطرفين ، (فمن عجز عنه فليطلب القرب منه ، فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغى أن يأتى بالشر كله ، ولكن بعض الشر أهون من بعض) .

والعنف والحدة نتيجة الغضب والفظاظة (وقد ينتج عن شدة الحرص) يضاده الرفق واللين ثمرة حسن الخلق ، ويقول الغزالى إن المحمود وسط بينهما ، إلا أن الرفق مفيد فى أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تقع (نادرا) و « الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه ، فان كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق فان النجح معه فى الأكثر » .

١٠٠ — القدر الذى يجوز التشفى به من الكلام : ويقول الغزالى إن

كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله (وقد نهى النبي الكريم عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه والأفضل تركه والعفو عنه لأنه يجره إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه) والذى يرخص فيه أن تقول من أنت وهل أنت إلا من بنى فلان ، يا أحمق يا جاهل (إذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق) ، يا سيء الخلق يا صفيق الوجه يا ثلابا للأعراض (وكان ذلك فيه) ، ولو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك فى عينى بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك ، فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين ، فحرام بالاتفاق .

١٠١ — الكبرياء : ويقول الغزالى : إن أسباب الكبر الظاهر أربعة : العجب والحقد والحسد (وبها يكون التكبر عند الخلوة والاجتماع) والرياء (ولا يكون به التكبر إلا لوجود ثالث) والتكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزراً واطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً ، وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد وفى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفى تعاطيه لأفعاله وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله : فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له ، وأن لايمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه ، وأن لايزور غيره ، وأن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه ، وأن يتوقى من مجالسة المرضى ، وأن لايأخذ متاعه يحمله إلى بيته أو يتعاطى بيده شغلا فيه ، وأن يطلب التجمل إذا رآه الناس ، ولا يبالى إذا انفرد بنفسه كيف كان (والمحبوب الوسط من اللباس للحديث القائل « إن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » ، فقد يكون لبس الثوب الجيد الجميل ليس للكبر بل لميله إلى النظافة أو لحبه للجمال ، إذ علامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شيء ولو فى خلوته) .

١٠٢ — الحقد ونتائجه : ويقول الغزالى إن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى

الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى والحقد يثمر بثمانية أمور : الحسد وأن تشمت بما أصابه من البلاء ، وأن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك ، وأن تعرض عنه استصغاراً له (وهو دونه) ، وأن تتكلم فيه بما لايحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره ، وأن تحاكيه سخرية منه ، وإيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه ، وأن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة ، وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تستثقله فى الباطن ولا ينتهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له أو بترك الدعاء له والثناء عليه والتحريض على بره ومواساته ، فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين ثواب جزيل ، وإن كان لايعرضك لعقاب الله ، والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فان أمكنه أن يزيد فى الإحسان مجاهدة للنفس وإرغاما للشيطان ، فذلك مقام الصديقين .

فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة : العدل وهو أن يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة ونقصان ، أو الفضل وهو أن يحسن إليه بالعفو والصلة ، أو الجور وهو أن يظلمه بما لايستحقه .

١٠٣ — الحسد ومراتبه : ويقول الغزالى إنه إذا أنعم الله على أخيك بنعمة (كدار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة) فلك فيها حالتان : إحداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها (وهذه الحالة تسمى حسدا وهو حرام إلا نعمة أصابها فاجر ، وهو يستعين بها على الفساد والإيذاء) ، والثانية أن لاتحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهى لنفسك مثلها (وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وهى محمودة وتكون واجبة إن كانت النعمة دينية كالصلاة ، ومندوبا إليها إن كانت النعمة من الفضائل كالصدقات ، ومباحة إن كانت نعمة يتنعم

بها على وجه مباح ، وهى وإن كانت تنقص من الفضائل ولكن لاتوجب العصيان) .

١٠٤ — أسباب الحسد : ويقول الغزالى إن أسباب الحسد سبعة :

(١) العداوة والبغضاء : وهذا أشدها (إذ ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجرى مجراه) فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه الحقد ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان (بالبلايا وزوال النعم) وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى ، وربما يخطر له أنه لامنزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه ، وغاية التقى أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه .

(٢) التعزز : وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره ، فاذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبر عليه وهو لايطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه ولا تفاخره عليه .

(٣) الكبر : وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة فى أغراضه ، فاذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته أو ربما يتشوف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه .

(٤) التعجب : كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا « ما أنتم إلا بشر مثلنا » فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم فى الخلقة وقالوا متعجبين « أبعث الله بشراً رسولا ؟! » .

(٥) الخوف من فوت المقاصد : وذلك يختص بمزاحمتين على مقصود واحد .

(٦) حب الرياسة وطلب الجاه بنفسه والتفرد : (فالرجل الذى يغلب عليه حب الثناء ويستفزه الفرح بما يمدح به من أنه لا نظير له فى فنه ، يحب

موت من يشاركه فى المنزلة ، أو زوال النعمة التى بها يشاركه فيها) .

(٧) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى : (فيفرح صاحبها باضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم) ، وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض ، فتعسر إزالته .

وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاملة فتظهر العداوة بالمكاشفة ، ويقول الغزالى إن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم هذه الأسباب ، ويقوى بين قوم تجتمع جملة منها فيهم وتتظاهر ، وهى تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض ، إذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا تكون بينهما محاسدة وكذلك فى محلتين ، فاذا تجاورا فى مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا (وتزاحما) على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه بقية أسباب الحسد ، ولذلك ترى الأسكاف مثلا يحسد الأسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة . ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا (ولذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم وغرضهم معرفة الله تعالى والمنزلة عنده — وأجلها لذة لقائه — وهذه كلها لا ضيق فيها ولا ممانعة ولا مزاحمة ، فاذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا ، لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت فى يد واحد خلت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر ، بينما العلم فى قلب العالم مستقر ويحل فى قلب غيره من غير أن يرتحل من قلبه ، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه) .

١٠٥ — آداب الألفة والصحبة : ويقتضى الكلام عن الألفة مع الناس الكلام عن معاملة عمومهم وتوادده لمعارفه منهم وحقوق صحبه

وزوجه ، وقد تكلم الغزالى عنها فى مناسبات مختلفة نجمعها ونجملها فيما يلى :

(ا) حقوق الناس عموما : ويقول الغزالى « إن حقوق المسلم هى : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك » .

(ب) واجبات الآكل فى اجتماع أو مشاركة : ويقول الغزالى إنه يجب على الآكل فى مجتمع أو مع شركائه ، أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل (إلا أن يكون هو المقتدى به فحينئذ ينبغى أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اجتمعوا للأكل) وأن لا يسكتوا على الطعام ، (ولكن يتكلمون بالمعروف) وأن يرفق برفيقه (فان قل نشطه ورغبه فى الأكل وقال له كل ولا يزيد فى قوله « كل » على ثلاث مرات) وأن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له كل ، ولا ينبغى أن يدع شيئاً مما يشتهيه لأجل نظر الغير له ، فان ذلك تصنع ، بل يجرى على المعتاد (ويحسن أن يقلل من أكله ايثاراً لاخوانه أو يزيد فيه على نية المساعدة وتحريك نشاطهم فى الأكل ، وأن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبلهم (بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا ، فان كان قليل الأكل توقف فى الابتداء وقلل الأكل ، حتى إذا توسعوا فى الطعام أكل معهم أخيراً ، فان امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعاً للخجلة عنهم) وأن لا يفعل ما يستقذره غيره (فلا ينفض مثلا يده فى الصحاف ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فى فيه ، ولا يغمس بقية اللقمة التى قطعها بسنه فى المرقة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر للمستقذرات .

(ج) آداب تقديم الطعام إلى الزائرين : ويقول الغزالى إنه ليس من السنة أن يقصد قوما متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل

فإن ذلك من المفاجأة (ولكن يجب عليه إذا اتفق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل مالم يؤذن له ، فاذا قيل له كل ، نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبته لمساعدتهم فليساعد ، وإن كانوا يقولونه حياء منه فينبغى أن يتعلل ، أما إذا كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به) . ويرى الغزالى أن آداب التقديم : ترك التكلف أولا وتقديم ما حضر (فان لم يحضره شىء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه ، وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغى أن يقدم) وللزائر أن لا يقترح ولا يتحكم بشىء بعينه فربما يشق على المزور احضاره (فان خيره أخوه بين طعامين فليتخير أيسرهما عليه) وأن يشهى المزور أخاه ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح ، وأن لايقول له هل أقدم لك طعاما بل ينبغى ان يقدم ، إن كان .

(د) آداب الضيافة : ويرى الغزالى أن مظان الآداب فيها ستة :

(١) الدعوة إذ ينبغى للداعى أن يعمد بدعوته الاتقياء دون الفساق ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص ، وينبغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافة فان إهمالهم ايحاش وقطع رحم ، وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه فان فى تخصيص البعض ايحاشا لقلوب الباقين ، وينبغى أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الاخوان (اتباعا للسنة) ، وينبغى أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الاجابة وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ، وينبغى أن لا يدعو إلا من يحب إجابته .

(٢) وأما الإجابة فسنة مؤكدة ولها خمسة آداب : أن لا يميز الغنى بالإجابة من الفقير ، ولا ينبغى أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة (أو لفقر الداعى أو لكونه صائماً) بل يحضر إلا إن تحقق أنه متكلف فليتعلل ، وأن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو كان يقام فى الموضع منكر كالتشاغل بنوع من اللهو وكذلك إذا كان الداعى ظالماً أو مبتدعا

أو شريراً أو فاسقاً أو متكلفاً ، وأن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن بل ينوى بها إكرام أخيه المؤمن وإدخال السرور على قلبه وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق .

(٣) وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين ، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة ، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع ، ولا ينبغى أن يجلس فى مقابلة باب الحجرة الذى للنساء وسترهم ، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذى يخرج منه الطعام ، ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس ، وإذا دخل ضيف للمبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء .

(٤) وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة : تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف ، وترتيب الأطعمة (بتقديم الفاكهة أولا إن كانت ، فاللحم والثريد فالحلاوة بعده يتخللها الماء البارد) ، وأن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفى منها من يريد ، ولا يكثر الأكل بعده ، وأن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدى عنها ، فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه ، ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم بل ينبغى أن يكون آخرهم أكلا وأن يقدم من الطعام قدر الكفاية ، وينبغى أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شىء منه ، فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق فى الضيفان ألسنتهم ، وما بقى من الأطعمة فليس للضيفان أخذه .

(٥) فأما الانصراف فله ثلاثة آداب : أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة ، وتمام الاكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول

والخروج وعلى المائدة ، وأن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى فى حقه تقصير ، وأن لا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه ويراعى قلبه فى قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه .

(هـ) آداب المعاشرة الزوجية : ويقول الغزالى إن على الزوج مراعاة الاعتدال والأدب فى أمور ، نجملها فيما يلى :

(١) الوليمة (وهى مستحبة) وحسن الخلق معها واحتمال الأذى منها ترحما عليها لقصور عقلها والحلم عند طيشها وغضبها (لا كف الأذى عنها فحسب) ، وأن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة فهى التى تطيب قلوب النساء ، وأن يراعى الاعتـدال فى الدعابة ، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروأة تنمر وامتعض . ويجب عليـه أن يعتدل فى الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التى تخشى غوائلها ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن تتبع عورات النساء ، وأما الغيرة فى محلها فلا بد منها وهى محمودة ، والطريق المغنى عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهى لا تخرج إلى الأسواق ! ويجب أن يعتدل فى النفقة فلا ينبغى أن يقتر عليها فى الانفاق ولا ينبغى أن يسرف بل يقتصد ، ولا ينبغى أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه فإن ذلك مما يوغر الصدور ، فان كان مزمعاً على ذلك فليا كله خفية بحيث لا يعرف أهله ، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته .

(٢) أن يتعلم المتزوج من عـلم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها فى الحيض وما لا يقضى ، وأن يعرف آداب الجماع ومنها أن لا يقارب الرجل زوجته فيصيبها قبل أن يحادثها ويؤانسها ويقبلها ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى

حاجتها منه (ويكره العزل لأنه دفع لوجود الولد) ، وأن يعرف آداب الولادة وأهمها أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى (فانه لا يدرى الخيرة له فى أيهما) ، وأن يؤذن فى اذن الولد ، وأن يسميه اسماً حسنا . وإذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل بينهن فى العطاء والمبيت ، وأما فى الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار .

(٣) ومهما وقع بينهما خصام ، (من جانبهما أو من الرجل) ولم يلتئم أمرهما فلا بد من حكمين أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا أمرهما ويصلحا بينهما « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » ، وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً (كما له حملها على الصلاة قهراً) ، ولكن ينبغى أن يتدرج فى تأديبها وهو أن يقدم أولا الوعظ والتحذير والتخويف ، فان لم ينجح ولاها ظهره فى المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال ، فان لم ينجح ذلك فيها ضربها ضربا مبرحا بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظما ولا يدمى لها جسما ولا يضرب وجهها . والطلاق مباح ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحا إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه امتثالا لأمر الله تعالى « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا حيلة للفراق ، فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهى آثمة ، وليراع الزوج فى الطلاق أربعة أمور : أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه (لأن الطلاق فى الحيض أو الطهر الذى جامع فيه حرام وإن كان واقعاً ، لما فيه من تطويل العدة عليها ، فان فعل ذلك فليراجعها) وأن يقتصر على طلقة واحدة (لأن الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم فى العدة ، وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة) وأن يتلطف فى التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الامتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق (إذ قال تعالى « ومتعوهن ») وأن لا يفشى سرها لا فى الطلاق ولا عند النكاح .

ويقول الغزالى إن حقوق الزوج عليها : طاعة الزوج مطلقا فى كل ما طلب فى نفسها مما لا معصية فيه . وأهم حقوق الزوج على زوجته الصيانة والستر وترك المطالبة مما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراما . ومن الواجبات عليها أن تلازم الصلاح والانقباض فى غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة فى حضوره ، ولا ينبغى أن تؤذيه بحال ، بل يجب عليها أن لا تفرط فى ماله بل تحفظه عليه ، ومن آدابها أن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها[1] .

حقوق الأخوة والصحبة : والأخوة عقد ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت (هذه الرابطة الروحيـة بين شخصين) تأكد الحق ، ولذا يرى الغزالى للأخ حقوقاً عدة نجمعها ونجملها فيما يلى :

(١) أن يساهم أخاه فى السراء والضراء : فيواسيه بماله ويعينه بالنفس فى الحاجات ويقوم بها قبل السؤال (أو على الأقل عند السؤال والقدرة مع إظهار الفرح) ويقدمها على الحاجات الخاصة ، وأدنى مراتب الأخوة أن يقوم بها من فضلة ماله ، وثانيها أن ينزله منزلة نفسه ويرضى بمشاركته فى ماله حتى يسمح بمشاطرته فيه ، وأعلاها أن يؤثره على نفسه !

(٢) أن يقيد بحقوقه جميع جوارحه : فينظر إليه نظر مودة يعرفها منه وينظر إلى محاسنه ويتعامى عن عيوبه ولا يصرف بصره عنه فى وقت إقباله ، ولا يرفع صوته عليه ولا يخاطبه إلا بما يفقه ، وأن يسكت عن ذكر عيوبه ومساوى أهـله وأحبابه وولده فى غيبته (لأنها غيبة) وحضرته (لأنه لن يجد منزهاً عن كل عيب) ، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه ، ويجب أن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه

(١) بهذا نرى سمو الغزالى بالصلة الزوجية وإخراجها عن أن تكون مجرد تسليم جسم لجسم لارضاء شهوة بهيمية ، إلى أن تكون صلة روحية قوامها الحب والعطف والتعاون على تربية الأولاد وتهذيبهم . راجع كتاب الحياة الزوجية لمحمود على قراعة ص ٤٧ — ٥٣ .

(فإن الذى سبك من بلغك) وعن التجسس عن أحواله ، وإذا رآه فى طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأل عنه (فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى ان يكذب فيه) ولا يبث أسراره إلى غيره البتة ولا يفشى شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، ويجب أن يسمع كلامه متلذذاً بسماعه ومصدقاً به ، وأن لا يقبض عن معاونته فى كل ما يتعاطى باليد ، وأن يتواضع له [1] وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ، فيجب عليه أن لا يسىء الظن به وأن يخبره (تبعاً للحديث الشريف) بحبه « لأن القلوب تتجارى » ، ويتفقده فى أحواله التى يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه ، وأن يدعو له ويظهر بلسانه وأفعاله كراهة جملة أحواله التى يكرهها ، والسرور بالتى يسر بها ، وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه ، ويثنى عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده (وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به ، وذلك من غير كذب وإفراط ، مع مراعاة حديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » وآكد من ذلك أن يبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح ، وأن يشكره على صنيعه فى حقه بل على نيته وإن لم يتم ذلك ، وأن يذب عنه فى غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض ، وأن يعلمه وينصحه وينبهه على عيوبه ويقبح القبيح فى عينه ويحسن الحسن (ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لا يطلع عليه أحد ، فإن علم أن النصح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وذهب أبو ذر إلى الانقطاع ، وأما أبو الدرداء وجماعة من

---

(١) ويغالى الغزالى ويقول يمشيه وراءه مشى الأتباع لا مشى المتبوعين ولا يتقدمه إلا بقدر ما يقدمه ولا يقرب منه إلا بقدر ما يقربه ويقوم له إذا أقبل ولا يقعد إلا بقعوده ! ولكنه قصر هذا إلى حين الاتحاد وطى بساط التكلف !

الصحابة فذهبوا إلى خلاف ذلك ، لأن الله تعالى قال لنبيه فى عشيرته « فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ولم يقل إنى برىء منكم) . أما زلته فى حقه بما يوجب إيحاشه فلا خلاف فى أن الأولى الصفح والاحتمال ، فإن كان بحيث يؤدى استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب فى السر خير والتعريض به خير من التصريح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، ويجب أن يقبل عذره مهما اعتذر إليه (كاذباً أو صادقا) وأن يحمل قوله وفعله فى حقه على وجه حسن . وقوام الأخوة الموافقة فى الكلام والفعل والوفاء والإخلاص ، ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته إلى الموت وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه وأقاربه والمتعلقين به (ومراعاتهم وتفقدهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ نفسه) ومن الوفاء أن لا يتغير حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه (إذ الترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم ، وأن يخالفه فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين ، وأن يكون شديد الجزع من المفارقة نفور الطبع عن أسبابها ، وأن لا يسمع بلاغات الناس عليه ، وأن لا يصادق عدو صديقه .

(٣) التخفيف وترك التكلف والتكليف : وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفهه عن أن يحمله شيئاً من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى : (فلا يجد فى صدره حاجة — الحسد والحقد — مما أوتى ، وإذا وجد فالانقطاع أولى) ، وتمام التخفيف بطى بساط التكلف (بأن يكون له عنده مرحب وهو السعة فى القلب والمكان وله عنده أهل يأنس بهم بلا وحشة ، وسهولة فى ذلك كله و لا يشتد عليه شىء مما يريد ، ويشير لذلك قول الأعرابى لصاحبه أهلا وسهلا ومرحبا) ، ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه فى كل ما يقصده ويقبل إشاراتهم ، فقد قال تعالى : « وشاورهم فى

الأمر » ، وينبغى أن لا يخفى عنهم شيئاً من أسراره .

١٠٦ — فالصديق روح أخيه ، بعينه ينظر وبأذنه يسمع وعن فكره ينطق ومنه يستملى ، إن هجع بخياله يحلم وإن انتبه به لاذ ، إذا استغنى عنه لم يزده فى المودة وإذا احتاج إليه لم ينقصه ، لا يكاف له ، بل تحدث رؤيته ثقة به وتهدى إليه غيبته طمأنينة إليه ، هو هو إلا أنه بالشخص غيره ، قد أحله حبة القلب من قلبه ، وجرى مجرى الدم فى عروقه ؛ فأخلص له الثقة وصفى له المودة . هكذا فهم الغزالى الصداقة ولذا رأى ما رأى للصديق من حقوق ، ولكنى بحثت عن الوفاء بحق واحد منها فلم أجده إلا فى القليل ، ولذلك ناديت وأنادى بالحب الصامت وهو أن تحب من تحب من الناس ولا تتصل به ، بل تعمل له ما يعمل المحبون ، وتثنى عليه بما يثنى المخلصون وتحمل له فى قلبك أمانى الصديقين . . . حتى إذا انتبه لك ، لم تجعله ينتبه ... وبذا يحرقك الشوق ، وبذا تطهرك الآلام .. وبذا تكون وفياً لجميع الناس ، صديقاً لهم كلهم ، وليس لك من بينهم أخ واحد (يجوز) أن تسميه صديقاً بالمعنى الذى أراده الغزالى (صدوقا) !! . . .

الباب الثالث

ما بينك وبين نفسك (فقه النفس)

« لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا إلى ملكوت السماء »

« حديث شريف »

١٠٧ — معنى حسن الخلق : الخلق كما يقول الغزالى عبارة عن « هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقاً سيئاً » . فالغزالى يرى أن الخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وأنه كما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، حسن الخلق (بالفتح) ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق (بالضم) فإذا استوت واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق (مطلقاً إذا اعتدلت جميعها ، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض يكون حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة) وهذه الأركان هى :

(١) قوة العلم : بأن تصير بحيث يسهل بها إدراك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الأفعال الاختيارية (أى الحكمة إذ يحصل من اعتدالها حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن إفراطها عند استعمالها فى الأغراض الفاسدة يصدر الخبث والمكر والخداع والدهاء والجربزة ، ومن تفريطها يصدر

البله والغمارة أى قلة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل — والحمق بصحة القصد وفساد سلوك الطريق — والجنون باختيار ما لا ينبغى أن يختار) .

(٢) قوة الغضب : بأن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة (أى الشجاعة بأن تكون قوة الغضب منقادة للعقل فتقدم لو كان عزما وتحجم لو كان حزما ، ويصدر منها الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها ، فإن مالت للزيادة فهى تهور يصدر منه البذخ والاستشاطة والتكبر والعجب ، وإن مالت للضعف فهى جبن يصدر منه الجزع والمهانة والذلة والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق والواجب) .

(٣) قوة الشهوة : بتأديبها بتأديب العقل والشرع (أى العفة ، ويصدر منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع ، وهى شره إن مالت للزيادة ، وجمود إن مالت للنقصان ويحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير — وهو أحمد من البخل — والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق — وهو أهون من التكبر — والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك) .

(٤) قوة العدل : وهو حالة وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها (وضدها الجور) .

١٠٨ — قبول الأخلاق للتغير : ويقول بعضهم إن الأخلاق (وهى الصورة الباطنة) لا يتصور تغييرها ، كما أن الخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها (فالقصير مثلا لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا) ، وأنه محال قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة ، ولكن الغزالى يستنكر هذا ويقول : « لو كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات

ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حسنوا أخلاقكم» ؛ ويعزز استنكاره بامكان تغيير خلق البهيمة إذ يمكن نقل الفرس مثلا من الجماح إلى السلاسة والانقياد (فما بالك بالإنسان ؟ !) ولكى يوضح لنا رأيه يقسم الموجودات إلى ما وقع الفراغ من وجوده وكماله (وهذا لا مدخل للآدمى فى اختياره فى أصله وتفصيله كأعضاء البدن) وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد له شرط قد يرتبط باختيار العبد (فالنواة لا تصير نخلا مثلا إلا بالتربية ، ولا تصير تفاحا أصلا) فكذلك الغضب والشهوة لا نقدر على قمعهما أصلا ، ولكن لو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة ، قدرنا عليه ، ولا يعارضنا فى هذا اختلاف الجبلات (إذ بعضها بطىء القبول وبعضها سريعة وسبب هذا قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداده مدة الوجود ، فان قوة الشهوة أصعب القوى وأعصاها على التغيير لأنها أقدم وجوداً) ، ثم إن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً ، والناس فيه على أربع مراتب :

(١) الإنسان المغفل الجاهل الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح ، بل بقى كما فطر عليه خالياً من جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضاً باتباع اللذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله إلى المجاهدة ، فيحسن خلقه فى أقرب زمان .

(٢) جاهل ضال قد عرف القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهوته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم تقصيره فى عمله ، فأمره أصعب من الأول إذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للصلاح ، وهو بالجملة محل قابل للروضة إن انتهض لها بجد وحزم ، والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم ، فاذا عزم على ترك شهوته فينبغى أن يصبر ويستمر ، وإذا نقض عزماً فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه ، لأنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ، ففسدت .

(٣) ضال فاسق يعتقد فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل ، وتربى عليها ، فهذا تكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور .

٤ — جاهل وضال وفاسق وشرير نشأ على الرأى الفاسد وتربى على العمل به ، فيرى الفضيلة فى كثرة الشر ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره (وهذا هو أصعب المراتب) .

ويرد الغزالى على قولهم إن الآدمى ما دام حياً فلا ينقطع عنه الغضب والشهوة وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق ، ولذلك لا يمكن تغيير الأخلاق فيقول : « إن هذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات ، فان الشهوة خلقت لفائدة وهى ضرورية فى الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ، ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال ، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط » .

١٠٩ — سبب حسن الخلق : ويرى الغزالى أن حسن الخلق يحصل على وجهين :

(١) جود إلهى ، وكمال فطرى بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق (كسائر الأنبياء) : ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب (فصدق اللهجة قد يكون طبيعياً ، وقد يحصل بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلم) .

(٢) اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة بحمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب : ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة

وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ، ولا ينال كمال السعادة به ، والمواظبة عليها بالمجاهدة خير بالاضافة إلى تركها ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله فى الرضى ، فان لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير » .

ويقول الغزالى : إن ميل النفس إلى مقتضيات الشهوة غريب فى ذاته وعارض على طبعه (لأن غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل) « فاذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟! » . ويستنتج من هذا أن الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، ويقول : « إن هذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح (النفس والبدن) ، فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة ، وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور » ، وضرب مثلا بمن أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتباً بالطبع ، فيتكلف الكتابة بمواظبته مدة طويلة على محاكاة الخط الحسن بيده ، فيرتفع منه أثر إلى القلب ثم ينخفض من القلب إلى الجارحة فيكتب الخط الحسن بالطبع .

١١٠ — ولما كان الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس ، كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، فيقول الغزالى : « إن مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبه إليه ، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، فبالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ، كما أن البدن فى

الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها ، وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً ، وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لابد من احتمال مرض المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ، فكذلك النقائص التى تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار ، وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فان كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية ، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذى يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن طبيب الأجسام لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك طبيب النفوس لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم » . أى أن الغزالى يرى أن الطريق الكلى سلوك مسلك المضادة

لكل ما تهواه النفس « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » .

١١١ — أمثلة لرياضة النفس : ولقد ذكر فى عدة مواضع أمثلة شتى للعلاج بالمضادة ، فيقول مثلا إن علة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة ، والمعرفة ترينا أنه لا محل للعجب لأن كل ما يعجب به من فضل الله ، وإنما هو (وهو من خلق الله واختراعه) محل لفيضان فضله تعالى وجوده ، فالأولى أن يعجب بمن إليه الأمر كله . ويقول إن رياضة الكبر بالتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس (أى العدل باعطاء كل ذى حق حقه) ، والسبيل فى اكتسابه أن يتواضع لقرينه (بالتنحى عن المجلس وأن يغدو إلى باب الدار خلفه) ولمن دونه كالسوق (بالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال واجابة دعوته والسعى فى حاجته ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه فلا يحتقره ولا يستصغره) .

ويقول إن علاج الغيبة هو المعرفة بأن ينظر إلى السبب الباعث له عليها إذ علاج العلة بقطع سببها ، فاذا كان سببها أن يشفى الغيظ بذكر مساويه (أو الحقد إذا امتنع تشفى الغيظ) فعلاجه بأن يقول إنه إذا أمضى غضبه عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه عليه (هو) بسبب الغيبة ، وإذا كان سببها موافقة الرفقاء ومجاملتهم ومساعدتهم (بالتفكه بذكر الأعراض) فعلاجه بأن يعلم أن الله تعالى يغضب عليه إذا طلب سخطه فى رضا المخلوقين ، وإذا كان سببها أنه استشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده ، فعلاجه بأن يعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين ، وهو بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا يدرى أنه يتخلص من سخط الناس أم لا ، وإذا كان سببها أنه نسب إلى شىء فأراد أن يتبرأ منه فذكر الذى فعله أو ذكر غيره بأنه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه من

فعله (كقوله إن أكلت الحرام ففلان يأكله) فعلاجه هو معرفة أن هذا العذر جهل ، لأنه يعتذر بالاقتداء بمن خالف أمر الله ولا يجوز الاقتداء به وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فاذا كان سببها إرادة التصنع والمباهاة برفع نفسه وتزكيتها بتنقيص غيره والقدح فيه ، فعلاجه بأن يعلم أنه بما ذكره أبطل فضله عند الله ، وهو من اعتقاد الناس فضله على خطر (إذ ربما نقص اعتقادهم فيه إذا عرفوه بثلب الناس) فيكون قد باع اليقين بالوهم (على أنه لو حصل له من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنه من الله شيئا) فاذا كان سببها حسده لمن يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد أن يسقط ماء وجهه عندهم حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه ، فعلاجه معرفة أنه جمع بين عذابين عذاب الحسد وعذاب الآخرة وربما يكون حسده وقدحه سبب انتشار فضل محسوده ، فاذا كان سببها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة أو السخرية والاستهزاء ، فعلاجه بمعرفة أن قصده منه اخزاء غيره عند الناس باخزاء نفسه عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

ومهما وجد عيباً فينبغى أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب — إن كان يتعلق بفعله واختياره — كعجزه ، وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق ، وإذا لم يجد العبد عيباً فى نفسه فليشكر الله تعالى ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه وغرور ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشىء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من

الشيطان ، فمن اعتقد أنه على خير فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور .

فإذا كان سببها انبعاث داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين بقوله ما أعجب ما رأيت من فلان ، فعلاجه (وهو فى الخاصة) هو معرفة أنه أهلك نفسه ودينه بدين غيره أو بدنياه . وهو مع ذلك لا يأمن أن يهتك الله ستره كما هتك بالعجب ستر أخيه . فإذا كان سببها الرحمة (وهو فى الخاصة أيضاً) باغتمامه بسبب ما يبلى به بقوله «مسكين فلان ، قد غمنى أمره وما ابتلى به» ، فعلاجه فى معرفة أنه ينقل إليه من حسناته ما هو أكثر من رحمته ، فإذا كان سببها الغضب لله تعالى (وهو فى الخاصة) على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه ، فعلاجه بمعرفة أنه بالغيبة محبط أجر غضبه لله (إذ الغيبة محبطة لحسناته إذ تنقلها فى القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه) وتعرض لمقته ، إذ كان الواجب أن يظهر غضبه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء .

وتطبيقاً على قاعدة المضادة نرى أن حاصل رياضة الأسباب المهيجة للغضب عند الغزالى يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر من قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا من الغضب الذى يتولد منها ، وقد ظن الظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج وكلا الرأيين عند الغزالى ضعيف ، ويعلل ذلك بان ما يحبه الانسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) ما هو ضرورة فى حق الكافة كالمأكل والمشرب والمسكن والملبس وصحة البدن ، فلا يخلو الانسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها ، بل إن غضبه لضرورة قوته وحاجته التى لا بد له منها فى

دينه ، فانما غضب لله) . والرياضة فى هذا القسم ليست لينعدم غيظ القلب ولكن لكى يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله فى الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل ، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير خلقا راسخاً . فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن (إلا إذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه ، فالشعبي مثلا لم يغضب على من سبه لاشتغال قلبه بمهمات دينه ، فقال له إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك) وكل مايمكن كسر شهوته وتضعيفه حتى لايشتد هيجان الغيظ فى الباطن وينتهى ضعفه إلى أن لايظهر أثر فى الوجه ، ولكن ذلك شديد جداً .

٢ — ما ليس ضروريا لأحد من الخلق (كالجاه والمال الكثير والصيت وكل ماصار محبوباً بالعادة والجهل بمقاصد الأمور) ويمكن التوصل بالرياضة إلى الإنفكاك عن الغضب على هذا القسم إذ يمكن إخراج حبه من القلب ، وذلك بان يعلم الإنسان أن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة فيزهد فيها ويمحو حبها عن قلبه ، (وأنه كلما كانت الحاجات والشهوات أكثر ، كان صاحبها أحط رتبة وأنقص) والرياضة فى هذا تنتهى إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه (وهو أهون) وقد تنتهى إلى قمع أصل الغضب (وهو نادر جداً) إذ يندفع الغضب بغلبة التوحيد أو حبه لله (إذ يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ) ويندفع أيضاً بحسن الظن بالله وهو يرى ان الكل من الله ، والله لايقدر إلا مافيه الخيرة فى مرضه وجوعه وجرحه وقتله ، فلا يغضب ، وهذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد تغلب فى أحوال مختلفة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعياً لا يندفع عنه ؛ وقد كان النبى الكريم يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ولكن كان الغضب لا يخرجه عن الحق (أى كان يغضب لله على الخلق) .

(٣) ما يكون ضرورياً ومحبوباً فى حق بعض الناس دون البعض لأنه

وسيلة إلى الضرورى والمحبوب (كالكتاب مثلا فى حق العالم فانه مضطر إليه فيغضب على من يحرقه ويغرقه) ، وما صار ضروريا فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه ، فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن ، حتى لا يشتد الألم بالصبر عليه !

١١٢ — وقد ذكر الغزالى أيضاً أمثلة كثيرة فى عدة مواضع للعلاج بمعجون العلم والعمل ، فيرى مثلا معالجة الغضب علمياً بستة أمور : أن يتفكر فى فضل كظم الغيظ والتحلم (بتكلف الحلم) والعفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه ، فيمنعه عن التشفى والانتقام وينطفىء عنه غيظه وأن يخوف نفسه عقاب الله بأن يمضى عليه غضبه يوم القيامة أحوج ما يكون إلى العقوبة ، وأن يحذرها عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو فى الدنيا لمقابلته والسعى فى هدم أغراضه والشماتة بمصائبه . وأن يتفكر فى قبح صورته عنده (بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب) ، وأن يكظم غيظه لله (مهما كان سبب الانتقام) ليعظم عنده . وأن يعلم أنه يوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه لأنه يغضبه لجريان الشىء على غير وفق مراده كأنه يقول مرادى أولى من مراد الله . وأما العمل فأن يقول بلسانه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان لم يزل بذلك فليجلس إن كان قائماً وليضطجع إن كان جالسا وليقرب من الأرض التى منها خلق (لأن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة) فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل .

ويرى أيضاً أن علاج حب الجاه مركب من علم وعمل ، أما العلم فهو أن يعلم أن كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم لا ينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية (لأنه يستهدف للحسد وقصده بالايذاء وخوفه على الدوام على جاهه واحترازه من أن تتغير منزلته فى القلوب المترددة بين الاقبال والاعراض ، فضلا عن أنه إن سلم وصفا فآخره الموت ويفوت الكثير فى الآخرة) ، وأما من حيث العمل فبالاعتزال ومباشرة

أفعال يلام عليها حتى يفارقه الطمع ويأنس برد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق ، وهذا هو مذهب اللامتية إذ اقتحموا الفواحش فى صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس ، وهو غير جائز لمن يقتدى به ، وأما الذى لايقتدى به فلا يجوزله أن يقدم على محظور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس !

ويعالج الغزالى أيضاً الرياء بالعلم (بقطع الرغبة فى الجاه بأن يعلم مافيه من الضرة بما يحبط عليه من ثواب الأعمال والمنزلة عند الله وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم منه فى الحال من التوفيق وما يتعرض له فى الآخرة من العقاب العظيم ، فيقبل على الله قلبه) وبالعمل (بأن يعود نفسه إخفاء العبادات حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تتنازعه النفس إلى طلب غير الله) فيشتغل بذكر الله ، فإذا خطر الشيطان له — بمعرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم — تنبه له واشتغل بدفعه بما اعتقده من أن ذم الناس لايزيده شيئاً مالم يكتبه عليه الله ، وأن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء .

ويقول الغزالى إن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، فالأدوية العلمية أن يتفكر الإنسان أنه بالحسد مهلك نفسه ومنغص عيشه (إذ يتعذب بكل نعمة يراها على أعدائه ويتألم بكل بلية تنصرف عنهم) ، ومسخط ربه (إذ سخط قضاءه وغش رجلا من المؤمنين وترك نصيحته ولم يحب الخير له ؛ بل أحب له البلايا ، وزوال النعم) ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسده ، بل يتعرض لسخط الله تعالى وشديد عذابه فى الآخرة ونقل حسناته إليه ، وعساه يحاسد رجلا من أهل العلم ويحب أن يخطىء فى دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح ، ويحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يتعلم ، وأى اثم يزيد على ذلك ؟ !

وأما العمل النافع فى الحسد فهو أن يحكمه ، فكل مايتقاضاه الحسد

من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه فإن بعثه الحسد على القدح فى المحسود ، كاف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على كف الانعام عليه ألزم نفسه الزيادة فى الأنعام عليه ، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولا طبعا آخراً ، وتهون مرارة هذا الدواء بقوة الرغبة فى ثواب الرضى بقضاء الله تعالى .

ويقول الغزالى إن إزالة الكبر فرض عين ، ويزول بالمعالجة بأمرين :

(١) استئصال أصله : وعلاجه مجموع من علمى (بأن يعرف نفسه وربه وأنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا به تعالى) وعملى (بأن تكمل المعرفة بالعمل ويجرب فى أفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس ؛ وبيانه أن يمتحن النفس بامتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن) فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه !

(٢) دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التى بها يتكبر الإنسان على غيره : فمن يعتريه الكبر من جهة النسب ، فليداو قلبه بمعرفة أمرين : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ، وأن يعرف أن أباه القريب نطفة قذره وجده البعيد تراب ذليل ! ودواء التكبر بالجمال أن ينظر إلى باطنه (إذ الرجيع فى امعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبزاق فى فيه والوسخ فى أذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت أبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، هذا فى حال توسطه ! وفى أول أمره خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر ، ولو ترك نفسه يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل ، لثارت

منه الأنتان ! هـذا على أن قبح القبيح لم يكن إليه فينفيه ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه ، وكيف ولا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الأسباب) ! فإذا كان التكبر بالقوة ، فيمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض (ولو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه ، وتقتله بقة تدخل فى أنفه أو نملة تدخل فى أذنه ، وتعجزه شوكة ، وحمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة) ! والتـكبر بالغنى وكثرة المال والاتباع والأنصار وبولاية السلاطين والتمـكن من جنتهم ، يزول بمعرفة أن هذه الأشياء قد تزول . والتكبر بالعلم يدفع بمعرفة أمرين أن حجة الله على العالم آكد لأنه لم يقض حق نعمة الله عليه فى العـلم (وقد مثله الله بالحمار يحمل اسفاراً وبالـكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) وأن يعرف أنه إذا تـكبر صار ممقوتاً بغيضاً عند الله . والتكبر بالورع والعبادة سبيل دوائه أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد (فلا ينبغى أن يتكبر على العـالم ولو كان فاجراً غير عامل بعلمه لأن الحسنات — والعلم منهـا — يذهبن السيئات . ولا على المستور فلعله أقل منه ذنوبا وأكثر عبادة وأشـد منه حبا لله ، ولا على المكشوف حاله ، لأن ذنوب القلوب من الـكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة فى صفات الله تعالى وتخيل الخطأ فى ذلك شديد عند الله) .

ويقول الغزالى إنه يجب على التائب إذا جرى عليه ذنب إما عند قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحـكم الاتفاق أن يتوب ويندم ، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ويمحوها (بأن تكون الحسنة فى محل السيئة فيما يتعلق بأسبابها) إما بالقلب بالتضرع إلى الله فى سؤال المغفرة والعفو واضمار الخيرات والعزم على الطاعات ، وإما باللسان بالاعتراف بالظلم والاستغفار ليمحو الذنب أو يخففه (وخيره ما كان بالقلب لا باللسان فقط)

وإما بالجوارح بالصدقات وأنواع العبادات . ويرى الغزالى عند كلامه عن الصبر أنه هو والعلم علاج الاصرار ، ويقول بلزوم تقوية باعث الدين على باعث الشهوة (باطماعه فى الثمرات الدينية للمجاهدة ، وتعويده مصارعة باعث الهوى ، وأن يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده مراعيا فى ذلك التلطف والتدريج ، فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض ، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية ، وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه) ، ولتضعيف باعث شهوة الوقاع مثلا يرى الغزالى قطع مادة قوتها بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الافطار على طعام قليل فى نفسه ضعيف فى جنسه والاحتراز عن اللحم ، ثم بقطع أسبابه المهيجة فى الحال بالعزل والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة (إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة) والفرار منها بالكلية ، ثم بتسلية نفسه بالمباح من الجنس الذى يشتهيه (وذلك بالنكاح) .

١١٣ — واجب مريض النفس : ويقول الغزالى إن مريض الأخلاق يحتاج إلى التصديق بأمور : أولها الإيمان بأن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية (كما أن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب) ، وثانيها العلم بصدق الرسول والإيمان بما جاء به (كما أنه لا بد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه) ، وثالثها الإصغاء إلى آيات التحذير من اتباع الهوى وارتكاب الذنوب وأنها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه ويفقد المناجاة ويسود وجه قلبه بالخوض فى الذنوب (إذ لا بد أن يصغى المريض إلى الطبيب فيما يحذره عنه من الأسباب المضرة على الجملة حتى تكون شدة الخوف باعثة على الاحتماء) ، ورابعها العلم بذنبه المخصوص وبالذنوب جميعها وآفاتها وكيفية التوصل إلى الصبر عنها وتكفير

ما سبق منها (إذ يجب على المريض أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه ، وليبين له العلاج الخاص لهذه العلة الخاصة) . ولذا يرى الغزالى فى موضع آخر أن الطريق الذى يعرف به الإنسان عيوب نفسه أربعة طرق : أن يحكم فى نفسه أستاذاً بصيراً بعيوب النفس ويتبع إشارته فى مجاهدته ، أو أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيرا متديناً فينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على ما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ، أوأن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه (فان عين السخط تبدى المساويا) أو أن يخالط الناس فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه .

١١٤ — ما نؤاخذ به وما نعفى عنه : ويرى الغزالى أن أخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر (أى إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد بالفكر ، وإما على سبيل التذكر إذ تخطر بعد ان كان القلب غافلا عنها) ، فتحرك — لأنها مبدأ الأفعال — الإرادات والرغبات فالعزم فالنية فالأعضاء ، وتنقسم هذه الخواطر إلى إلهام محمود يدعو للخير سببه الملك ، وإلى وسواس مذموم يدعو إلى الشر سببه الشيطان ، فيتجاذب القلب بين التوفيق والاغواء ، وهو بأصل الفطرة صالح لقبول اثار كل منهما صلاحاً متساوياً (وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الشهوات أو الإعراض عنها) ، ولكن لأنه لا يخلو عن صفات البشرية المتشعبة عن الهوى ، لم يخل عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ، ولذا كانت حمايته عنها فرض عين على كل عبد مكلف .

ويقول إن للقلب أربع أحوال قبل العمل بالجارحة : الخاطر فالميل فالاعتقاد فالهم . فالخاطر كما لو خطر له مثلا صورة امرأة أى حدثته نفسه بها ، فإذا هاجت الرغبة إلى النظر تبعاً لحركة الشهوة التى فى الطبع كان الميل ، وهى أمور اضطرارية لا تدخل تحت الاختيار تهجس فى النفس ولا يتبعها عزم على الفعل ، ولذا يرى الغزالى أنه لا يؤاخذ به ، فاذا حكم القلب واعتقد

أنه ينبغى أن ينظر إليها (مالم يمنعه حياء أو خوف أو تأمل من الالتفات) فيؤاخذ عنده بالاختيارى منه ولا يؤاخذ بالاضطرارى ، فاذا هم بالفعل بتصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه ، فيرى أنه مؤاخذ به ، إلا أنه إن لم يفعل (إذ قد ينعدم بعد الجزم فيترك العمل) فان كان قد تركه خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة (لأنه رجح جهده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل) ، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر عارض لا خوفاً من الله تعالى ، كتبت عليه سيئة (لأن همه فعل من القلب اختيارى) ، وبذا وفق الغزالى بين ما يدل على المؤاخذة كقوله تعالى « إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء » وقوله « إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا » ، ومايدل على العفو كقول النبى الكريم « عفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها ، مالم تتكلم به أو تعمل به » .

١١٥ — الخوف أفضل أم الرجاء ؟ ويقول الغزالى إن فضل الخوف والرجاء بحسب داء القلب الموجود ، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به وعصيان أمره ، فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو القنوط من رحمة الله (فترك العبادة أو أسرف فى المواظبة عليها حتى أضر بنفسه وأهله) فالرجاء أفضل (وكذلك إن نظر إلى المطلع لأن الرجاء مستق من بحر الرحمة والخوف من بحر الغضب ، ولأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب ، يجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل ، وينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح — لأنه يراد لغيره — ، فالتقى الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن (لأن الخوف يراد للعمل وقد انقضى وقته ، لأن المشرف على الموت لا يقدر عليه ثم لا يطيق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته) ، «وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاؤه ،

ولا ينبغي أن يفارق أحـد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله ، فإن من أحب لقـاء الله ، أحب الله لقاءه » وغاية السـعادة أن يموت محباً لله تعالى .

ويقول الغزالى « إن حال الرجاء يغلب باستقراء الآيات والأخبار والآثار وبالإعتبار بأن العناية الألهية إذا لم تقصر عن عباده حتى لم يرض لهم أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة ، كيف يرضى بانسياقهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً عـلم ان أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة فى الدنيا حتى أنه ينـكر الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لايعذب بعد الموت أبداً مثلا أولا يحشر أصلا ، فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لامحالة ، وإنما الذى يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه إلا فى حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الخلق الغالب عليه ، الخير والسلامة ، فسنة الله لاتجدلها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون ، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم . ومن الإعتبار أيضاً النظر فى حكمة الشريعة وسنتها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، وليذكر قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

الفهرس

تصويبات

ص	س	خطــأ	صواب
٣٤	٢٦	العازنين	العارفين
٤٥	١٥	تطير	تطهير
٨٧	١٢	ناقصة	نافعة
١٠١	١٥	آ كل	أ كل
١٥١	١٣	ىقوله	كقوله
١٥٤	٩	الحية	الحمية
١٧١	١٠	سريعه	سريعة

